الدكتور نظمي لوقا

# التقاء المسيحية والإسلام

الناشر
مكتبة غريب
٣،١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون : ٩٠٢١٠٧

الدكتور نظمي لوقا

# التقاء المسيحية والإسلام

مكتبة غريب
٣٥١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

## الاهـــداء

إلى كل من يقدسون الحقيقة الموضوعية

ولا يعدلون بها شيئاً

وأيضاً إلى

**نائل**

الذى هـــام بالحقيقـــة الموضوعية

وقدسها منذ صباه الباكر ...

**نظمى**

## أبواب الكتاب

## لماذا هذه الكتب ؟

## مقدمة جادة الى قارىء جاد

لعل الأوفق ، قبل أن نسأل لماذا هذه الكتب ، أن نسأل :
— لمن هذه الكتب ؟

فليس كل من « يفك الخط » يصلح قارئا لكل كتاب ، بل لكل نوع من الكتب نوعه الميسر له من القراء .

ونقولها ابتداء ، وبلا مواربة :

هذه الكتب لانسان يحترم عقله بما هو إنسان ، ولايجعل عليه حجابا ولاغشاوة من الأهواء ، أو الغواية ، أو التحامل .

وقد قدمنا السؤال عن لمن هذه الكتب ، لأن معرفة الجواب عن هذا السؤال هى التى تفتح لنا باب الاجابة عن لماذا هذه الكتب . فصاحب العقل البرىء من الأغراض والأهواء والتحامل لايرضى بغير المعرفة الصحيحة الموضوعية بديلا . أما من غلبت الإهواء على عقله ، فهو شر أنواع الجهلاء . ذلك أن الطبيعة تأبى الفراغ .. وحيث تغيب المعرفة الموضوعية تندفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات لملء الفراغ ... ويصدقها ذو الهوى ، لأنها توافق هواه وتبرر له ما يرائى به نفسه من أنه ومن يلوذ بهم ويلوذون به هم وحدهم أصحاب الصواب والفضائل ، وأن كل من عداهم متصفون بكل نقيصة ...

وهذا هو النقص بعينه ؟ لأنه بذرة الجهل الأصيل الذى يشوه العقل ، ويزيف الحقائق ويقلبها ، وهى — ككل بذرة — سرعان ما تنمو شجرتها ، وتكثر فروعها ، وتتكاثر بما تلقيه الرياح اللواقح من بذور أشجار مماثلة فى السوء ، أو هى أسوأ وأدهى !

ومن هاهنا يتميز من يحترم عقله ممن يزدرى عقله ويتبع أهواءه فيلتوى بمعايير تفكيره لتوافق هذه الأهواء .. وهذا هو سوء النية بعينه !

من يحترم عقله يعرف ما عبرنا عنه فى مستهل كتاب لنا منذ أكثر من عشرين سنة بأنه :

— من أغلق عينيه دون النور ، يضير عينيه ولايضير النور !

ولكن المسألة هنا أن من يغلق عينيه دون النور يرفض أن يرى النور ، فيصنع صنيع النعامة فيما يقال عن دفنها رأسها فى الرمال حتى لاترى مالا تحب أن تراه .

وهذا هو سوء النية ، أو عداء الحقيقة الموضوعية .

أما من يحترم عقله فيعلم أنه لابديل للحقيقة الموضوعية ، قوتا طبيعيا لفكره وروحه ، ولذا يرفض كل ما عداها ، ويريد أن يعرفها « كما هى » . فهى ضالته « كما هى » . ولايريد أن يفرض عليها أى تحريف لإرضاء هوى نفسه ، لأن هوى نفسه هو معرفة

الحقيقة ، ولا مطلب له غير هذا . فهو ينقاد لها ويقنع بها ويسر . أما ذو الهوى فيريد أن تنقاد له الحقيقة ، ولذا يصنعها أو يزيفها أو يحرفها كي تروقه وترضى ذاتيته .

وهكذا ينصف ذو العقل عقله ولا يضلله . أما ذو الهوى فيخدع نفسه ، ويفرح بهذا الخداع ، ويصدقه ، ويهلل له ... ومثله لا جدوى من مخاطبته باسم العقل ومعاييره ، لأنه لايريد العقل ولا يحترمه ، ولايريد إلا ما يطيب له ويروقه . فليس بينه وبين من يخاطبه بالعقل ومعاييره الموضوعية « أرض مشتركة » ...

وإنما الأرض المشتركة هى الموضوعية العقلية التى تكيل لجميع أطراف القضية الواحدة بمكيال واحد . ولا تكون هذه الأرض المشتركة إلا بين من يحترمون عقولهم .

فلهؤلاء إذن نكتب هذه الكتب ، من منطلق العقل الموضوعى وطلبا لما يرضيه وينزل على حكمه .

أما لماذا هذه الكتب . فسؤال ما أيسر الإجابة عنه بعد أن عرفنا لمن نكتبها .

نكتبها تعريفا بالحقيقة الموضوعية للعقائد . فكما كتبت أنا القبطى عن الإسلام ، كتبت « على مائدة المسيح » ، بعين المنهج العقلى الموضوعى .

والعارف لايحتاج إلى تعريف . بل غير العارف هو الذى إلى تعريفه ما يجهله . ولكن شرط غير العارف هنا ألا يكون مصرا على الجهل متشبثا به ، وان يكون — على العكس من ذلك — مشوقاً إلى المعرفة الصحيحة ، خاليا من رغبة صريحة أو مستترة فى تنقص العقيدة التى لايدين بها .

ومما لايخفى أن الأحمق عدو نفسه ، وهو نكبة على من يجنح بهوى قلبه إلى نصرتهم . ومن آيات ذلك أنه أشبه بالمرآة الملتوية السطح التى تشوه ما ينطبع فيها من الأشكال . وهذا حاله مع ما يدين به من العقائد ! فتتحول العقيدة السوية المستقيمة فى نفسه الملتوية إلى شىء لا استواء فيه ولا استقامة ولا نزاهة ولا عدل . يخال فرط ولاء لدينه أن يتحامل على الأديان الأخرى ويرى فيها كل نقيصة ، ويفرغها من كل سمة طيبة وخلق كريم .. فيخفى عليه أنه ما من دين سوى يسيغ الظلم والافتراء أو يتقرب إليه المؤمنون به بالتحامل والتشويه والكذب . وإنما المتدين حقا — أيا كانت ديانته — هو الذى يسمو به تدينه عن هذا الإسفاف ، ويعصمه عن تحريف الحقيقة أو تشويهها . فليس برا بدين أى متدين أن يزور له احتكار كل حسنة باضفاء كل نقيصه على ما يخالفه من الأديان .

فالواثق بدينه لايتحاشى معرفة غيره من الأديان معرفة صادقة موضوعية ، لأنه لايخشى أن يقلل هذا من قيمة دينه ومتانةإيمانه به .

ولم يزل الافتراء والظلم آية على فساد التدين بأى دين . لأن التدين الحق يسمو بصاحبه . فان لم يكن دافع سمو ودواعيه نزاهة ، فهذا مطعن على نفسية المنتسب زورا إلى هذا الدين . لأنه فى هذه الحالة لا يمثل دينه فعلا ، بل يمثل به ويشوهه ...

وهذا ما يصنعه التعصب الأعمى على يد الحمق ، الذين يسيؤن إلى أديانهم وهم يظنون أنهم يفرطون فى إكرامها والبر بها . وهكذا الصديق الجاهل دائماً ...

وتقترن بحالة التعصب — التى هى حالة تحامل وسوء ظن وسوء نية أصلا — حالة أخرى يسمونها فى علم النفس سلوكية الإسقاط . فالمتعصب يسقط تعصبه على الفريق الآخر الذى يتحامل عليه ، وتكون النتيجة أن يرمى ذلك الفريق الآخر بما هو غارق فيه فعلا من التعصب . وقديما قيل « رمتنى بدائها وانسلت ! »

وهكذا تحدث الحلقة المفرغة أو الدائرة الخبيثة : الجهل وسوء النية ينتجان التحامل والتعصب ، وعملية الإسقاط ترمى الطرف الآخر بالتعصب ، وفى ضوئه يفسر كل سلوك للطرف الآخر مهما كان بريئاً . فيكون توهم العداء حيث لاعداء ، أو تضخيم العداء حيث لاتوجد إلا بوادر ضئيلة الحجم ، كمستصغر الشرر الذى لايلبث أن يخمد ، لولا أن ينفخ فيه النافخون ، فاذا به حريق هائل .

●

وأما وقد فرغنا من هذه العموميات التى قد تصدق على أى فريق فى بلد تجتمع فيه أكثر من ديانة . وأحياناً أكثر من طائفة أو نحلة من دين واحد — كحال البلاد التى تجتمع فيها البروتستانت والكاثوليك . أو أهل السنة والشيعة ... فقد بقى علينا أن ننتقل من التعميم إلى التخصيص .

ففى مصر يتعايش المسيحيون والمسلمون ، من أبناء الوطن الواحد ، وكلاهما فى وطنه أصيل عريق المنبت .

وفى مصر حرية اعتقاد مكفولة مرعية . وليس الأمر فى أى وقت أمر فتنة أحد عن دينه . ولا أمر تصادم فى صميم العقيدة .. ففيصل هذا كله « لكم دينكم ولى دين » . والدينان يجمعهما التوحيد وإن كان لكل من الديانتين أسلوبها الخاص فى التوحيد . ولاسبيل إلى رفع هذا التباين فى « أسلوب » التوحيد ، لأن مرجعه ليس إلى المحاجة بالعقل الموضوعى ، بل إلى الايمان والتسليم . وكل امرئ موكول فى هذا إلى إيمانه . وكل حزب بما لديهم فرحون .

فقضية اللاهوت إذن ليست محل بحث . وإنما المسألة التى تحتاج إلى تنوير وتوضيح — فى رأيى — هى المسألة التى يمكن أن تكون محل أخذ ورد ، لأنها تتعلق بالمعايشة والتعامل ، أى المعاملة . ألا وهى مسألة الأخلاق ، أو السلوك ، فى ضوء كل من المسيحية والإسلام .

ولأمر ما قيل إن الدين المعاملة .

فنى المعاملة تتجسد روح الدين على صورة سلوك عملى . فالعبادة علاقة المؤمن بربه . والمعاملة علاقة المؤمن بغيره من الناس. وفق الدستور الذى رسمه له الدين . فنى التعامل إذن يتبدى مقدار تحرى المرء روح دينه ومبادئه ، وتخلصه من أهواء أنانيته انفاذا لهذه المبادئ الكلية العليا .

فغاية كل دين السمو بالنفس الانسانية إلى الله بالتعبد من ناحية وبمكارم الأخلاق فى التعامل مع الناس من ناحية أخرى .

وجانب العبادة مجاله ومرجعه إلى الإيمان . وهو ليس مما يحسم بالعقل الموضوعى ، الذى عرفنا أنه « الأرض المشتركة » بين الناس كافة ، مهما تباينت عقائدهم الإيمانية .

أما جانب الأخلاق فموضوع دراسة عقلية ، لتحديد ينابيعها فى هذه الديانة وفى تلك .

وبذلك يتبين لنا السلوك المثالى فى كل من العقيدتين ، فلا يسبق إلى ذهن أحد من الفريقين سوء الظن المبنى على الجهل بمكارم الأخلاق التى يمليها كل دين من الدينين على المؤمنين به ... فحيث تشع أنوار المعرفة الموضوعية ، لا مكان لخفافيش سوء الظن التى لاتعيش إلا فى ظلمات الجهل وسوء النية .

وهذا ما سنعالجه بأسلوب علمى ، أى بأسلوب عقلى موضوعى فى هذه الصفحات ... التى نوجهها إلى كل من يحترم عقله ، فلا يرضى له الجهالة ، وينزهه عن سوء الظن والافتراء ؟

وسلام على الصادقين .

## ـ ١ ـ

# الانسان والأخلاق



الفرق بين الانسان والكلب !

كثيراً ما يمدح الناس أنواعاً من السلوك فى أجناس من الحيوان ولعل أقرب هذه الحيوانات صلة بالإنسان هو الكلب . فهم يضربون به المثل فى الوفاء لصاحبه .

أليس هذا الشاعر البدوى ، الذى وفد على بغداد مادحا بشعره أحد أقطابها من الأمراء العظام ظن أنه بلغ فى مدحه الغاية ، حين قال له :

— أنت كالكلب فى حفاظك للسود وكالتيس فى قراع الخطوب !

وضحك الناس من بداوته الغفل وذوقه الخشن . ولكن المدلول عليه من هذه الفطرة الساذجة أن عامة الناس يرون صفات حميدة فى طباع بعض الحيوانات ، ويرون هذه الحيوانات تفوق الإنسان فى هذا الذى تميزت به من تلك السجايا .

ولكن من حقنا أن ندقق ، ونسأل : ما علة هذا التفوق ؟ لماذا يتفوق الكلب على الإنسان فى كثير من الأحيان من حيث هذا الوفاء ، أو الارتباط بالصاحب ؟ والتفانى فى الولاء له ، إلى الحد الذى جعل بعض الكلاب تنقذ حياة أصحابها ، مخاطرة بحياتها ؟

أقول إذا دققنا النظر وجدنا مرجع هذا التفوق إلى مصدر

السلوك من التكوين الطبيعي للحيوان ، واختلافه عن التكوين الطبيعي للانسان .

فارتباط الكلب بأشخاص معينين مرجعه إلى تكوينه الانفعالى المحض ، الذى لا يخالطه أى دور للعقل النظرى ، ولا للتصور العقلى .

فالكلب لايوجد فى تكوينه وظيفة تقوم بالتقويم ، أو وزن الأمور والأشخاص بحسب معايير كلية يستوى فى ميزانها الناس جميعاً . بل كل وزنه أو معياره للاشخاص أن هذا صاحبه أو أليفه الذى يعرفه من رائحته . فهو عنده « قطب » الإقبال والإعزاز . فمن رضى عنه هذا القطب ووالاه صار عنده مقبولا ، ودخلت رائحته فى « خانة » الروائح المقبولة . أما غير أولئك ، فيلقاهم بالنباح أو بما هو شر من النباح .

ويهش الكلب لمن يلقى له بالقطعة من العظم أو اللحم ، فينشغل بها ، مع أن هذا الشخص قد يكون عدوا ، وقد يكون اللحم الذى ألقاه إليه منطويا على سم زعاف .

وقد يكون الكلب من السلالات المدللة ، فيأنس للمداعبة والملاطفة . أو يكون من السلالات الشرسة فلا يغنى معه شيء من ذلك .

، وفى جميع الأحوال نجد مصدر بقاء الكلب على عهد صاحبه لايخونه ولا يجفوه ولاينقلب عليه مسألة مرجعها إلى ضيق أفقه بحكم تكوينه الانفعالى . فهو لايتصرف على أساس قاعدة كلية ومقاييس عامة . لأن التعميم ، أو الاحتكام إلى القواعد أو المبادئ الكلية عملية عقلية منطقية لا وجود لها عند الكلب . بل لا وجود لها عند سائر صنوف الحيوان ، فيما عدا الإنسان ، الذى صفته الخاصة أنه حيوان ناطق ، أى عاقل .

ورب قائل يقول ، كما يقول كثيرون من عامة الناس :

— ولكن للحيوان عقلا أو ذكاء

وهنا ينبغى أن ننتبه إلى أن ذكاء الحيوان ذكاء عملى . مرتبط بالمواقف والاحساسات الجزئية . وأن الموجه الأكبر لتصرفاته إنما هو الغريزة .

ولعل الغريزة هى السبب فيما يذهب إليه عامة الناس فى كثير من الأحيان ، من اعتبار بعض الحشرات قدوة يتحسرون على أن الإنسان لايحسن الاقتداء بها .

ومن ذا الذى لايعرف للنحل أو النمل دأبه الشديد فى العمل بجد واستماتة . واتباعه نظاما لايختل قيد شعرة . فى حين يتكاسل كثيرون من الناس فى عملهم ، أو تسود أعمالهم وتصرفاتهم الفوضى المخجلة .

ولكن مرجع هذا الدأب فى العمل ، وهذا النظام فى كل

تصرف ، إلى الغريزة التي لاتملك هذه الحشرة أو تلك لها صدا ولا مقاومة ولا قدرة لديها للخروج على سلطانها .

أما الإنسان فلديه حرية الاختيار . ويملك الرجوع عن القرار الذى اتخذه ،لأنه هو الذى يتخذ القرارات . ولاتمليها الغريزة عليه ، ولذا يستطيع أن يبدل مسالكه ومواقفه من الأشياء والأشخاص . وكثيراً ما يستخدم هذه القدرة على التبديل — سواء بالصواب أو الخطأ — فيوصف سلوكه بالتذبذب أو نكث العهد أو ما إلى ذلك مما يتنزه عنه بعض أنواع الحيوان .

ذلك أن الحيوان سجين غريزته — سواء راقتنا هذه الغريزة وأفدنا منها أو ساءتنا كغريزة العقرب مثلا التي تلدغ الدنى والسنى بلا تمييز — فهو لايملك اتخاذ قراراته ، بل غريزته هى التى تقرر له . فهو فى الحقيقة مجرد أداة عمياء صماء لغريزته . وهو منزه عن الخطأ فيها لهذا السبب . أما الإنسان فيملك إصدار قراراته ، بملء حريته ، وبقدرته على التصور العقلى ، وعلى الذكاء النظرى . ولذا فهو عرضة لأن يصيب ويخطىء . ويملك تبديل سلوكه باختيار خطة جديدة ، سواء أكان هذا التعديل للأحسن أو الأسوأ .

ومقاييس الأحسن والأسوأ ، أو مقاييس الخطأ والصواب هنا مرجعها إلى معايير لاتوجد إلا فى العقل النظرى أو المنطق الذى اختص به الانسان . فهذه المعايير تختلف عن المعايير الانفعالية — أى الذاتية — التى لدى الحيوان .

فالمعايير الانفعالية لا .·. أن تكون ذاتية ، لأ الأنفعال خاص بالضرورة بذات واحد . وليس شيئاً عاما مشتركا بين جميع الذوات أو الأفراد .

فارتباط كلب معين بك مثلا ، ارتباط انفعالى خاص بهذا الكلب بالذات ، ولا يعم بالضرورة غيره من أفراد جنس الكلاب فهو إذن ارتباط ذاتى .

والكلب – بما هو حيوان غير عاقل – لا وجود لديه لما نسميه الأفكار أو المعانى المجردة ، أو المبادئ الكلية . فعلاقاته جميعاً ذاتية لا كلية فيها . فهو مثلا لايعرف التسامح من حيث هو مبدأ يطبقه على الكافة . وإن مارس التسامح فى الحدود الذاتية معك شخصياً ، لأن ارتباطه بشخصك ، لا بمبدأ عام . فقد تركله أنت فى لحظة ضيق ، فلا يزمجر ولا يكشر عن أنيابه . ويلوذ حزينا بالانزواء تحت المقعد أو المائدة أو الفراش . أما إن ركله أى شخص لا ارتباط له به ، فلا يمكن أن يتسامح معه مطلقا .

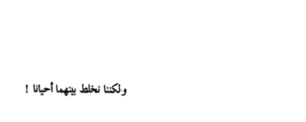
فالحيوان ذاتى فى سلوكه ، مغرق فى ذاتيته . ونحن الذين نزن هذا السلوك الذاتى بمقاييسنا الإنسانية الكلية ، فنصف الكلب بالوفاء ، ونصف القط بالخيانة ، ونصف الخنزير بالخسة ، وهكذا.

والحقيقة أن هذه المقاييس أو الأحكام الخلقية التى نصف بها

الحيوان إنما هى أحكام بشرية ، بمقاييس بشرية ، لا وجود لها عند الحيوان الذى ننسب إليه هذه الأخلاق .

وهنا يتضح لنا – أكثر من ذى قبل – الفرق الحاسم بين الإنسان والحيوان .

فنحن قادرون على إصدار الأحكام الخلقية ، لأننا نملك المعايير أو الموازين العقلية الكلية التى نزن بها أنواع الأفعال والسلوك ونملك حرية الاختيار . اختيار الالتزام بمبادئ ومعايير معينة ، أو عدم الالتزام بها . أما الحيوان فلا يملك هذه المعايير العقلية الكلية ، ولا يستطيع أن « يفهمها » ، وبالتالى ليست لديه حرية الالتزام بها أو عدم الالتزام بها . لأنه مقيد قيدا أبديا بسلطان غريزته وذاتية انفعالاته وتصرفاته . فهذه الذاتية هى أقصى حدوده ، وهى معياره الوحيد فى كل شىء ...



ولكننا نخلط بينهما أحيانا !

أعنى أننا نخلط أحيانا – وأحيانا كثيرة جداً للأسف الشديد – بين الناس والكلاب ، أو الحيوانات الأليفة عموما ، فى المعاملة والتنشئة .

فكما نعلم الكلاب الأليفة أصول النظافة ، ونلزمها باتباع نظام معين نمليه عليها فيما يجوز لها أن تفعله ، وما لايجوز لها أن تفعله ، كذلك نعلم أولادنا وهم صغار تلك الأمور الضرورية ؛

وطبيعى أننا نجد بين صغارنا وبين تلك الحيوانات شبها ، فنصطنع لكليها أسلوباً واحدا فى شىء نسميه التربية ، وهو فى حقيقته « تدريب » .

وذلك فى مرحلة معينة موقف له عذره أو مبرره . ولكن الخطأ الجسيم فى الانخداع بهذا التشابه الظاهرى فى المرحلة الأولى من الطفولة ، فيخفى عنا أن هذه « الشتلة » الطيعة كالعشب الرخو . إنما هى مرحلة . فلا تلبث أن تتطور « الشتلة » أطوارا أخرى ، تغدو فيها سنديانة ضخمة ، وتظهر لها صفات وقدرات لا صلة بينها وبين صفات العشب وأطواره .

فالطفل الذى يشبه فى ذاتيته وسلوكه الانفعالى الكثير من الحيوانات العجماء ، يحمل فى داخله استعدادات كامنة لا نظير لها

عند هذه الحيوانات . وبالنمو السليم تتحول هذه الاستعدادات إلى قدرات عليا ، تجعله من مستوى مختلف تماما عن مستوى الحيوان الأعجم ، هو مستوى « الموضوعية الكلية » أى العقل النظرى الذى يفهم وينشىء نظريات العلم ، ويستخدم المعايير الكلية التى لاترتبط بانفعالاته الذاتية ، ولاتتأثر بها .

أقول أن الخطأ الجسيم أننا نغفل عن هذه « النظرة المستقبلية » إلى الطفل ، ونستمر فى معاملته وكأنه كلب ندربه ، ونصبه صبا فى قوالب من الأوامر والنواهى : افعل كذا عند هذا الموقف المعين ولا تفعل كذا عند ذاك الموقف المعين .

وبهذا الإملاء نصادر تلقائية الناشىء ، ونفرض عليه إرادتنا من الخارج ، بحيث يغدو — إن نجحنا — أشبه بآلة صماء ، لا إرادة لها ، بل يريد لها ويقرر لها المسيطرون عليها .

وقد تملى لنا غفلتنا فى هذه الحالة أن نفرح أشد الفرح إن وجدنا انقيادا من الناشىء ، بحيث يبدو « مهذبا » حسن السير والسلوك ... كأنه الكلب المدرب تدريباً حسنا على ألعاب السيرك !

والواقع أننا نكون بهذا « النجاح » المزعوم قد حولنا ذلك الناشىء إلى كلب من كلاب السيرك المدربة فعلا !

فكلاهما لايصنعان ما يريدان ، بل ما نريد نحن منهما . وكلاهما مصدر انقياده وطاعته هو ارتباطه الانفعالى أو العاطفى بنا ، بحيث

يريد إرضاءنا ، ويجد سعادته كلها فى رضانا عنه وسرورنا به وتصفيقنا له !

وهذا — بطبيعة الحال — مسخ للطبيعة الإنسانية ما بعده مسخ . وبذلك نكون قد ضحينا بسمو المستوى الانسانى الحر والمرتبط بالموضوعية والكلية ، قربانا على مذبح صنم هو « الفعل اللائق » .
ولعل سائلا يسأل :

— ولماذا هو مسخ ؟ أليس الفعل اللائق أفضل من الفعل المستهجن ؟

وهذان فى الحقيقة سؤالان . نبدأ بثانيهما . فنقول أن قيمة أو أهمية الفعل أنه يدل على شخصية أو نفسية الفاعل . بحيث يكون الفعل « تعبيراً » عن إرادته الحرة . أما الفعل الذى لا يريده فاعله ، بل يفعله تحت تأثير إرادة أخرى مسيطرة أو ضاغطة عليه ، فهو فعل الشخص الذى يسيطر عليه فى الواقع وليس فعله هو . بدليل أنه لو زال تأثير هذه السيطرة ، لصنع ذلك الشخص نفسه شيئاً آخر .

فالفاعل لكل فعل باملاء أو سيطرة من آخر ، ليس فاعل ذلك الفعل فى الحقيقة ، بل هو « مفعول به أو بواسطته » لا أكثر...!

وهكذا يتحول البشر إلى آلات ، لأن الآلات هى التى تنفذ

ما يراد منها بغير اقتناع وبغير حرية اختيار . وهذا هو الرق الأصيل الذى هو أفحش وأقبح من الرق الذى كان سائدا فى عهود أسواق النخاسين . لأن الرقيق الذى كان يباع ويشترى كان يضمر فى نفسه التمرد ، أى جذوة الحرية . أما الناشىء الذى نطبعه على السلوك اللائق بالتدريب الصارم حتى يصبح طبعاً ثانياً له ، فلا وجود لهذه الجذوة لديه ، لأنه تحول « داخليا » إلى عبد ، أو كلب ، بالفعل !

وهذا فى حد ذاته يفسر لنا ظاهرة المسخ . فليس المسخ سوى تعطيل الملكات والقدرات . وأى فرق بين ذلك الذى يسميه بعض الناس « تهذيباً » و « تربية حسنة » وبين ما كان يصنعه « زيطة » صانع العاهات فى رواية نجيب محفوظ !

لا فرق على الإطلاق !

فبذلك يتم « تثبيت » الناشىء على المستوى الانفعالى الذاتى ، ويكون مقياسه للصواب والخطأ ما يرضى عنه « قطب » ولائه وارتباطه الانفعالى .. أو المسيطر عليه نفسيا .. كالأم أو الأب . أو المعلم . أو الرأى العام فى المجتمع عموما .. ويظل سلوكه فى حدود هذا المعيار الذاتى ، فلا يرقى إلى الموضوعية التى قد يكون من الناحية المعرفية أو التعليمية قد وصل إليها .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا فى هذا المقام أن الآباء والأمهات الذين ينشئون أولادهم على هذا النحو الانفعالى الذاتى ، يغرسون

فيهم الذاتية بكل المغريات . فعندما يحثونهم على الجد فى الدراسة ، تكون نصيحتهم لهم دائما :

ـ اجتهد كى تنفع نفسك وتنال الجاه والثراء العريض ... ولا يحدثونه أبدا عن أهمية اسداء النفع للناس .

وبذلك تتم وثنية الذاتية . أى عبادتها كأنها صنم . والاعتقاد بأنها غاية الغايات من كل نشاط وكدح فى الحياة . أى أن « المنفعة الذاتية » هى القيمة القصوى .

فعليه أن يجد ويجتهد لينفع نفسه ويجنى الثروة . أى أن المنفعة الشخصية ولاسيما الثروة هى الغاية القصوى . أما الاجتهاد فوسيلة .

وبالذكاء العملى الذى لايسترشد ولايستنير بالمبادئ الكلية ، لايجد هذا الشخص ما يقيده بالوسيلة المعينة إذا ما توسم وسيلة أخرى توصله إلى الغاية المنشودة ، بل المعبودة !

وهكذا تقترن الذاتية اقترانا طبيعياً جداً بالوصولية . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومن هنا ينشأ ذيل آخر من ذيول الذاتية ، بالإضافة إلى الذيل الأول وهو الوصولية . وذلك الذيل هو النفاق . فنى وسعه وهو يتخذ الوسائل غير المشروعة أن يتظاهر بالمحافظة على المسلك اللائق كى لايفقد رضا من يحرص على رضاهم . فان استطاع ذلك اعتقد

أنه « جمع بين الحسنيين » ... جمع بين وصوله إلى المنفعة ، وبين المحافظة على المظهر أو السمعة ، بالحيلة والتحايل .

وهؤلاء الذاتيون يعنيهم المظهر لا المخبر . ويعيشون لما يبدون عليه ، لا لما يكونونه فعلا . ولذا كانت « الفضيحة » لا « الخطيئة » هى الكارثة الكبرى وموضوع فزعهم الأكبر ... وكانت صيغة أفضل دعاء عندهم « دوام الستر » أو « وقاك الله شر الفضيحة ! » .

وأمثالهم لايطلبون الصواب بمقاييس كلية للصواب ، بل يطلبون ما يوافق هواهم الذاتى ، وإن علموا أنه غير مشروع ، إما عرفا ، أو قانونا ، أو دينا . وكل ما يتمنونه هو « أن يسترها الله » فيجنبهم الافتضاح ...

وينبغى أن نلاحظ أن التجاءهم للابتهال أو الدعاء إلى الله ، ليس عن تقوى وانقياد له سبحانه ، بل بنية « استخدامه » جل جلاله للتستر عليهم وإنجاح مآربهم الذاتية ، التى قد تناقض وصاياه الإلهية على خط مستقيم !

ومثل الناشئين على هذا النحو من الذاتية ، تتركز ذاتيتهم فى السلوك مع التقدم فى مراحل العمر ، حتى إذا تلاشى سلطان آلهم ومن تعلقوا بهم فى الطفولة والصبا ، بقى لهم ارتباط واحد ومعيار واحد هو صميم الذاتية ، لأنه الارتباط بمنفعتهم الشخصية ولذاتهم التى تشبه لذات الحيوان .

●

فلئن كان الحيوان بسلوكه الذاتى الذى لايقدر على سلوك سواه لايرقى إلى مستوى الأخلاق بمعنى الكلمة ، لأنه مستوى لابد أن يصدر عن قاعدة موضوعية كلية لاتتأثر بالانفعالات الذاتية . فكذلك هؤلاء الذاتيون فى سلوكهم وفعالهم جميعا ... بشر مسخوا حيوانات عجماء . فهم أيضا لا خلاق لهم . ولكن الحيوان له عذره ، لأنه ليس ميسراً إلا لهذا الذى جبلت عليه طبيعته . فهو سوىّ لامسخ فيه . أما هؤلاء البشر فالمفروض أن يكون لهم مستوى خلقى ، وقعودهم عنه إنما هو عيب فيهم وقصور يحسب عليهم .

أجل ، قد تكون هذه جناية التربية السيئة ، التى تظن أنها أحسنت . وهذا فى حد ذاته خليق أن ينبهنا إلى خطورة التربية . وأن نعى أننا لا يحق لنا أن نجبر أولادنا على ما يريحنا ، وأن ننظر إليهم منذ البداية « نظرة مستقبلية » تعدهم لأطوار الحياة المقبلة ، لاتكبل هذا التطور .

ولنذكر أن الحيوانات تلد . أما الإنسان فيربى . والتربية لابد لها من بصيرة ، وبعـــد نظر . وأن يكون المربى فى خدمة النمو السوى للناشىء . فنحن نربيه لنفسه وزمانه ، لا لأنفسنا ولا لزماننا .

مجتمع الأقران ...

يكون إحساس الطفل منذ ولادته ببيئته المحيطة به إحساس كائن مستهلك ، يمتص من البيئة التى تحيط به ما ينميه ، وما يرضيه . فهذه البيئة مصدر لما يلذه أو ما يؤلمه . فكل علاقته بمن حوله وما حوله علاقة رضا أو نفور أو خوف .

وهذه كلها علاقات ذاتية . فهذا الشيء أو هذا الشخص « دح » أى حسن لأنه يسره أو يلذه ، وذاك الشخص أو الشيء « كخ » أى رديء لأنه يغضبه أو لاينقاد لرغباته أو يؤلمه ... ولاتخرج الأمور جميعاً عن هذا النطاق الانفعالى الذاتى .

بل إن هذه الانفعالات الذاتية ليست ثابتة ، فصفة الشخص أو الشيء عنده بأنه « دح » أو « كخ » ليست صفة ثابتة للشخص أو الشيء نفسه . بل تتغير حسب الظروف أى الحوادث أو ردود الفعل الجزئية من النقيض . فماما — مثلا — « دح » فى معظم الأوقات ولكن ما أن ترفض له رغبة حتى تنقلب إلى « كخ » ، ويصب عليها غضبه ، فالانفعالات الذاتية بنت لحظتها ، ومن شأنها التغير والتقلب . فمعيارها الوحيد — من حيث هى انفعالات — إحساس الطفل الصغير فى لحظته أو حينه .

ولا تبدأ أوصاف الأشياء — ما بين الحسن والرداءة — تثبت فى نظره للأشياء والأشخاص أنفسهم وتستقر على حال إلا بعد فترة ،

وذلك حين يتم لديه إدراك انفصال ذاته عن الأشياء ، وأن للأشياء وجودها المستقل – أى وجودها الموضوعى – بصفات يخلعها عليها من تجربته معها .

ولكن هذه الصفات تظل ثمرة انفعالاته بالأشياء وخبرته بها . وتظل علاقاته بالأشخاص والأشياء علاقات انفعالية ذاتية خالصة .

وما يتلقاه من الوالدين من توجيهات وتدريبات يكون مرتبطاً لديه أيضاً بانفعالاته ، التى هى – فى هذه المرحلة الباكرة – كل طاقاته تقريباً ، وتقترن بكل إدراكاته . فهو يستجيب – حين يستجيب – للتوجيهات ، كى يظفر برضا الموجهين له أو المشرفين عليه . ويتجنب ما يغضبهم استجلابا لهذا الرضا .

وهذا فى حد ذاته يدل على أنه غارق أو مستغرق تماما فى العلاقات الانفعالية الذاتية المحض ، أخذا وعطاء ، أى بطريقة تبادلية بينه وبين المحيطين به . فهذه البيئة هى مجال نشاطه الذى يتسم أساسا بالانفعالية . وكل قيمتها عنده أنها هذا المجال المغذى لانفعالاته التى يعيش بها ولها ...

ويظل الطفل هكذا .. حتى إذا اختلط بمجتمع جديد ، وصار عضوا فيه ، وهو مجتمع الأنداد – أى مجتمع أقران له فى مثل عمره – فى الحضانة أو فى مدارس الأطفال ، ظلت هذه النظرة إلى

البيئة وإلى المحيطين به ، وظلت هذه الانفعالية الذاتية الطابع السائد لديه . وهذا طبيعى جدا ، لأن هذه الانفعالية الذاتية هى طاقة نشاطه كلها حتى الآن ... وإدراكاته وخبراته المعرفية كلها مقترنة بها ولا تنفصل عنها . أى أنها إدراكات غير محايدة وغير مجردة من مشاعر الإقبال أو النفور .

وعلى هذا المنوال يبدأ فى نسج علاقاته فى مجتمع الأقران هذا . ويبدأ بفرض رغباته وانفعالاته على الآخرين ، وعندئذ يجد نتائج أو ردود أفعال مختلفة تشعره بالحيرة أو الغرابة فى هذه الخبرات الجديدة .

فى بيئة البيت كان محط الأنظار ومحور الاهتمام . أما هنا فالوضع مختلف . كان سابقاً أشبه بالنجم الذى تدور حوله كواكب البيئة . أما هنا فالموجودون فى البيئة كل واحد منهم يعد نفسه نجما وينتظر من الباقين أن يدوروا حوله .

هو ها هنا إذن — فى مجتمع الأقران — ليس القوة الأساسية . بل كل ند من أنداده مركز قوة . وبتعدد مراكز القوى تفرض الظروف على الطفل سياسة جديدة ، أى نمطا جديدا من السلوك كى يتسنى له الاستمرار .

وأول شرط فى شروط الاستمرار فى بيئة ما هو « التجانس » أو حد أدنى من الانسجام مع العلاقات التى تفرضها هذه البيئة .

فهو شخصياً انفعالى ذاتى ، وهم أيضاً انفعاليون ذاتيون ، فلابد من أحد أمرين : إما صراع وتنازع بين مراكز هذه القوى الانفعالية الذاتية ، وأما أساس جديد للتعايش السلمى ، تنزل به كل قوة من هذه القوى عن شيء من ذاتيتها أو رغباتها التى تتركز حولها انفعالاتها ، كى توجد « أرض مشتركة » أو « منطقة محايدة » يتم فيها التفاهم والتآلف .

وهذا ما لا مفر من حدوثه أينما كانت هناك قوى متقاربة ، سواء بين الأطفال ، أو بين الدول ! فإما التصادم وإما التعايش السلمى عن طريق خلق تلك الأرضية المشتركة للتفاهم والتآلف ...

ولكن هذا التآلف بين الأطفال فى هذه الحالات ، شأنه شأن التعايش السلمى بين الدول ، لايلغى وجود النزعات الذاتية التى تظل مكبوحة ومتربصة لأى فرصة كى تسفر عن وجهها فى فورات خصام أو صراع بارد أحيانا ، وساخن أحيانا أخرى ... مادام الأطفال فى المرحلة الانفعالية الذاتية .

ومما يمنع الصراع السافر — لدى الأطفال ولدى الدول — ويرغم الجميع على البحث عن أرضية مشتركة للتعايش السلمى أن تكون القوى متقاربة . فتوازن القوى يساعد على إيجاد هذا « السلام المسلح » أو ما كان الأقدمون يسمونه « هدنة على دخن » — أى هدنة لاتقوم على ود خالص ، بل على تربص لأى اختلاف فى

توازن القوى يجده أحد الأطراف فرصة سانحة كى يفرض رغبته أو إرادته على الطرف أو الأطراف الأخرى ...

قانون واحد لتعدد القوى فى المجال الواحد ، سواء كانت هذه القوى « ذاتيات انفعالية » لدى الأطفال ، أو « ذاتيات انفعالية » لدى الدول ... -

●

وأول خبرة يتعلم منها الطفل فى مجتمع الأقران شيئاً جديداً ، عن طريق رد الفعل الانفعالى ، أنه إذا حاول فرض رغبته على آخر بخطف شيء راقه أو استهواه ، أو بتوجيه ضربة إليه لأى حافز أثار ضيقه ، تلقى رد الفعل الانفعالى فورا : عدوانا بعدوان، وضربة أو أكثر بضربته الواحدة ، ولم يجد استعدادا للرحمة أو التساهل ... على النحو الذى كان كثيرا ما يحظى به فى البيت .

ومن تكرار خبرات الاحتكاك ورد الفعل ، لايجد أمامه وسيلة أخرى سوى محاولة المسالمة بكبح رغباته التى تعودت أن تفرض نفسها على ما فى بيئته سابقاً ... كى يأمن ردود الفعل المؤلمة ... ويحاول أيضاً استجلاب رضا أفراد البيئة الجديدة بمختلف أنواع التودد ، الذى لايخلو من احتكاكات سريعة يثبت فيها قدرته على مقاومة العدوان ، وسرعان ما تصنى هذه الاحتكاكات التى تشبه « بالونات الاختبار » التى تطلقها الدول لتحسس رد الفعل ومدى

استعداد الطرف الآخر للمقاومة أو الاستسلام . ويتعلم أن يعامل الآخرين بمثل ما يجب أن يعاملوه به .

وشيئاً فشيئاً تتكون فى مجتمع الأقران مجموعات صغيرة أو شلل ، كل منها فى الحقيقة « عصبة » أو « كتلة متحالفة » ينسى كل عضو فيها انفعالاته الذاتية الفردية ، ويندمج فى « روح الجماعة » التى يجد فى أمجادها ونشاطاتها مصدرا لإشباع رغباته وانفعالاته التى كانت حتى الآن فردية .

وبهذا « الاندماج » الاجتماعى تبدأ لدى الطفل مرحلة جديدة ، لايزال فيها انفعاليا ذاتيا ، معاييره لاتتعدى السرور والألم ، أو الأقبال والنفور ، أو نشوة النصر والفخر ومضاضة الهزيمة والانكسار .

ويمكننا أن نسمى هذه المرحلة الذاتية الانفعالية الجديدة التى بدأت فى التكون ، مرحلة « توسيع الذات » . التى تتصف بما تتصف به كل التحالفات المعروفة على مستوى الدول ، من تجميع القوى المشتركة فى الأمزجة أو المصالح أو المخاوف ... مع بقاء كل دولة أو كل ذات فردية قائمة بذاتها فيما بينها وبين نفسها ... أما فى الأمور العامة المشتركة فالتحالف كوحدة هى التى تمارس نشاطها .

ويسود هذه التحالفات الطفلية ما يسود تحالفات الدول وتكتلاتها . فالعضو يمكنه إذا أحس أن عضويته غير ملائمة لرغباته

أو مصالحه أن ينفصل ، لينضم إلى مجموعة أخرى . ولكن السمة فى جميع الأحوال هى سمة « الذاتية الموسعة » .

وفى داخل هذه المجموعات أو التحالفات (الشلل) تجد الطاقة الانفعالية الفردية متنفسا أكبر ، بسبب المشاركة فى « روح الجماعة » و « العمل الجماعى » ، فنرى الصفة الغالبة لنشاطات هذه « الذاتية الموسعة » طاقة هائلة من « الحماسة » ، التى هى فى الواقع تجميع كمى ضخم للطاقة الانفعالية العنيفة لدى كل فرد من أفرادها . ومن شأن هذه الحماسة أن تزيد وتعمق مشاعر السرور والغضب والاندفاع والإصرار ... فيجد الطفل عضو هذه الجماعات الطفلية ما يشبع انفعاليته بصورة لم يعهدها من قبل حين كان يعيش فى بيئة البيت .

ورد فعل هذا الاشباع الانفعالى الجارف أن يزداد تعلق العضو بالجماعة — أى جماعة يشبع انضمامه إليها انفعالاته — ويحس أنه ولد بعضويته ولادة جديدة ، وخطى بحياة جديدة فيقوى اندماجه وانتماؤه وولاؤه .

وهذا الاندماج أو الانتماء أو الولاء علامة على أنه « تجاوز ذاته » الفردية لحساب « الذات الموسعة » الجديدة ، أى الذات الجماعية .

بحيث يجد نفسه ضائعا إذا أبعده المرض مثلا عنها ، وبحيث ينسى ذاته الفردية فى ذاته الموسعة فى لحظات او مواقف الحماسة الجارفة .

وفى هذا المجتمع الجديد ، بل هذه « الحياة الجديدة » تنمو لديه فى الوقت نفسه—من غير أن يدرى — ملكاته المعرفية والادراكية شيئا فشيئا ... عن طريق الخبرات التى يكتسبها من التعلم فى المدرسة وفى الملعب ، وفى كل مكان ...



# أطوار الذاتية الموسعة

وفى ساحة « مجتمع الأقران » يؤدى توالى الانفعالات بالأشخاص أى الأقران ، نتيجة الخبرات والتجارب المتوالية من الاتصال والاحتكاك ، إلى نشأة عواطف تتبلور فيها الانفعالات المتكررة المتشابهة ... وهى إما عواطف نفور أو عواطف ارتباط .

وهذا النمط من العواطف شبيه فى نشأته هنا ، بنشأة العواطف فى بيئة البيت ... ويتميز بالخروج عن دائرة « الأثرة » أو الأنانية الضيقة التى كان الطفل فى البداية ينحصر داخلها .

وينبغى هنا والآن أن ننتبه إلى أن هذا الاستعداد لتحول الانفعالات الجزئية المتكررة المتواترة إلى عواطف أكثر منها ثباتا تتيح إقامة علاقات لها نوع من الاستقرار بالأشخاص الموجودين فى بيئة الطفل ، إنما هو استعداد متفاوت ، بمعنى أن الأطفال متفاوتون من حيث توافر هذا الاستعداد لديهم . فمنهم من يظل فى هذه المرحلة جانحا إلى الأثرة فى تكوينه لهذه العلاقات . فيكون إحساسه بالذين يتعلق أو يرتبط بهم قائما على أساس « أداتى » ، أى من حيث هم « أدوات » أو « وسائل » لإشباع أثرته أو رغباته الخاصة . ومنهم أيضا من يكون أكثر تحرزا من هذه الأثرة ، فلا يكون إحساسهم بمن يتعلقون بهم إحساسا « أداتيا » خالصا ، بل يميلون ميلا واضحا إلى تغيير رغباتهم الخاصة بما يوافق هؤلاء المحبوبين

ويدخل عليهم الرضا والسرور . وهؤلاء بالطبع ذوو استعداد أكثره « انفتاحية » على الآخرين ... أى أنهم أميل للعطاء فى مشاعرهم ، وليسوا مستأثرين بموضوعات حبهم مائة فى المائة ... بل إن منهم من « يستمدون » معظم أو كل رضاهم من إرضاء من يحبونهم .

وسيظل هذا التباين بين أداتية الاستئثار الآخذ ، و « امتدادية » التفتح المانح . أو بين « الامتصاصية » و « الإشعاعية » ملحوظاً فى سلوك الناس فى شتى المراخل والأطوار ، حتى نهاية العمر ، تبعا للاستعداد النفسى ، أو ما يسمى « الطبع » .

وسيظل هذا التباين ملحوظا أو كامنا ، أيا كانت مساحة الدوائر التى يتم بها « توسع الذات » ... أى التى ينضم إليها الطفل ثم الناشىء ثم البالغ فيما بعد ، فيقال أنه ينتمى إليها بإحساسه .

فهناك مثلا ، بعد الانتماء الأسرى ، الانتماء « الشللى » ، أو « العصبة » الصغيرة من رفاق اللعب ، والانتماء إلى مدرسة معينة ، تدخل فى دائرتها الشلل المتعددة ، ومنها شلة الطفل الأساسية بالإضافة إلى الشلل الأخرى المناوئة أو المنافسة ...

وفى هذه المرحلة يعرف الطفل معنى « الصراع » الذى يسببه تعدد الانتماءات ، بما يتطلبه كل انتماء منها من ولاء . فيكون عليه أن يختـــار إلى أى الولاءين المتعارضين ( أو الولاءات المتعددة ) ينحاز .

إنه لايعى وعيا عقليا واضحا هذا التعارض ، ولكنه يحسه ، ويتصرف بتلقائية إحساسه . ويكون الانتماء الأقوى هو الأضيق أحيانا ، أو هو الأشد تأثيرا أحيانا أخرى ، على حسب « المزاج » النفسى أو الطبع .

فذو الطبع الأداتى المستأثر لا يكون ولاؤه الأعمق والأقوى أيا كانت دائرة انتمائه إلا لذاته وما يرضيه . فحين تتعارض مطالب أى انتماء له مع مطلبه الذاتى ، يكون انحيــازه لنفسه واضحا قاطعا وبلا خجل . أما ذو الطبع الإشعاعى فيشعر بالتوزع بين نداء ذاته ونداء الانتماء للمجموعة ، وإذا انحاز لنفسه ضد هذا الانتماء شعر بالخجل ،وعد نفسه ضعيفا ، وأغضى تحت أبصار أعضاء مجموعته ، وهذه أول علامات الشعور بالارتباط أو الولاء للآخرين . أى أول علامات الإحساس بمعنى الواجب ، الذى لا يكون إلا على حساب الذات والذاتية . وأصحاب هذا الطبع منهم الذين يبدو منهم فى مثل هذا الموقف الانحياز لجانب « الولاء » ضد ذواتهم ورغباتها .

وهؤلاء هم الذين تنتظر منهم فيما بعد البطولات الأخلاقية . بل إن بوادرهم هذه وهم صغار بطولات أخلاقية واضحة ، لأنها قدرة وإقدام على « التضحية » برغباتهم الذاتية الفردية فى سبيل الولاء العاطفى لشىء خارج ذواتهم . ويتميز ون غالبا منذ طفولتهم بالحنان ، على عكس المركزين فى ذواتهم الذين لا يشعرون غالبا بما يتجاوز « الرثاء لأنفسهم » .

ومع اتساع دوائر الانتماء ، تنشأ الصراعات بين مطالب هذه الانتماءات — وليس بالضرورة بين الذات والولاء للمجموعة — وعندئذ ينشأ فى البداية ما يعبر عنه المثل الشعبى .

— أنا وأخى على ابن عمى . وأنا وابن عمى على الغريب ..

فالرابطة الأخوية دائرة داخل دائرة الأسرة الكبيرة التى يدخل فيها ابن العم . وهذا النمط ينطبق على الانحياز عند تعارض الولاء لدائرتين تدخل إحداهما فى نطاق الأخرى . وبحسب منطق « الذاتية الموسعة » تتغلب الدائرة الأضيق — لأنها أقرب لمركز الذات — على الدائرة الأوسع ، كما تغلبت الذات على أضيق الدوائر .

وهنا أيضا ينبغى أن نلاحظ مراحل التطور فى نفسية الطفل ، فانه عند حد معين من النمو الإدراكى يرتقى إلى الإحساس بقوة علاقته بالدوائر الاوسع ، على أساس معرفى يتجاوز مقاييس العواطف الشخصية أو الذاتية .

فالجانب الإدراكى يكتسب بالتدريج مزيدا من القوة والاستقلال عن الجانب الانفعالى ، فيصبح الطفل أو الناشىء أقدر على معرفته الواقع « كما هو » ، وأنه من حيث هو واقع مستقل عن انفعالاته وعواطفه الشخصية .

كان إحساسه فى البداية أن والده مثلا أقوى وأهم رجل فى العالم . ولكنه — مع نمو قدراته الإدراكية للواقع — يعرف بعد ذلك

أن أباه ليس أقوى ولا أهم رجل فى العالم . بل لعله أيضا يعرف أنه ضئيل الحجم والوزن والأهمية . ويمكن مع هذا أن يظل ارتباطه وتعلقه بأبيه كما هو ... فلا يبنى معرفته بالأشخاص والأشياء على أساس انفعالى أو عاطفى .

ومن تنمو لديهم هذه القدرة المعرفية « الموضوعية » للواقع ، ويتم استقلالها عن مشاعرهم « الذاتية » يختلفون عمن لا يتم لديهم هذا الاستقلال ، فتظل إدراكاتهم للأشياء ملونة أو قائمة على مشاعرهم الذاتية . وهؤلاء الذاتيون العاطفيون تظل لديهم « حارتهم » أعظم شوارع الدنيا ، و « أولاد حتتهم » أعظم « جدعان » العالم ... وما إلى هذا من الأحكام الذاتية التى لا سند لها من الموضوعية النزيهة البريئة من التحيز الأعمى .

وهذا التحيز الأعمى — سواء للمدرسة أو الحارة أو النادى الرياضى أو فريق كرة القدم .. أو الإقليم .. وهلم جرا — هو أساس « العصبيات » الجامحة العمياء ، التى تتأجج بسببها الحزازات والصراعات الطفلية ، والصبيانية ، بل والدولية أيضا .

●

وواضح أن الشعور بالولاء إنما هو ارتباط عاطفى . وقد لاحظنا أنه يتفاوت بتفاوت الاستعداد النفسى له .

ومن الطبيعى أن الولاء الذاتى الذى لا يصاحبه إدراك واقعى موضوعى يحفظ التناسب الواقعى بين الأشياء والأشخاص ، من

السهل أن يدفع بصاحبه — نتيجة التعصب الأعمى غير المستنير بالمعرفة الموضوعية الواقعية — إلى العدوان ، لفرض ما تتوهمه عاطفته الذاتية بالقوة على الناس ، أى لتحويله إلى واقع بالنسبة للجميع ، لا بالنسبة لذاته فحسب ! .

أما من تنضج لديهم القدرة الإدراكية الموضوعية للواقع فقد لا يقل إعزازهم الذاتى لموضوعات حبهم العاطفى الذاتى ، وتعلقهم الوجدانى الانفعالى بها ، ولكن هذا الإعزاز لا يتدخل فى أحكامهم أو اقتناعاتهم المنصبة على الواقع بشكل عام — هذا إذا كانوا من ذوى الطبائع المتفتحة المستعدة لتجاوز ذاتيتهم . أما النوع الآخر ، وهم الذاتيون المتصلبون ، فيجنحون إلى « المكابرة » ، أى يرفضون الإذعان لحكم الواقع الموضوعى ، ويصرون على « فرض » مشاعرهم وانتماءاتهم الذاتيه ( غير الموضوعية ) على الآخرين ، بقصد تغيير الواقع كى يوافق مشاعرهم وانتماءاتهم الذاتية . وبدلا من تعديل معتقداتهم الذاتية لتطابق الواقع الموضوعى ، يريدون تعديل الواقع الموضوعى ليطابق معتقداتهم الذاتية .

وهؤلاء لا يزال سلوكهم بازاء الواقع شبيها بما يكون فى مرحلة السنتين الأولى والثانية من الطفولة ، حين يدرج الصغير بخطواته

الأولى فى المكان ، ويغضب عندما يجد الجدار يعترض طريقه ، ويحاول ازاحته فلا يتزحزح .. حتى إذا ما تجاوز هذه المرحلة صار يعدل هو مساره ليدور حول الجدار . أما المكابرون فتظل سلوكيتهم بازاء الواقع الكبير كسلوكية هذا الطفل الصغير بازاء عالم حجرته قبل أن ينمو متجاوزا الإصرار على فرض رغباته على الواقع المستقل عنها .



## قواعد اللعبـــة

وفى مرحلة تالية لإدراك الواقع موضوعيا ، واستقلال هذا الواقع عن الرغبات الذاتية ، تأتى مرحلة قبول الطفل فى مجموعات اللعب الجماعى ، ولاسيما لعب الكريات الصغيرة ( لعب البلى ) .

فقبل مرحلة معينة من النمو لا تسمح مدارك الطفل بتفهمه قواعد اللعبة ، فلا يقبلون انضمامه للمجموعة اللاعبة ( لأنه لم يزل صغيرا ) . ومتى وصل إلى هذه القدرة دخل المجموعة ومارس اللعبة ، التى تتميز بأن لها قواعد خاصة .

ومعنى هذا أن الطفل صار قادرا على فهم معنى القاعدة . ولكن الالتزام عند الممارسة بهذه القواعد المعروفة يتفاوت بتفاوت ما أشرنا إليه من الاستعداد للتجرد من الذاتية المستأثرة ، وتجاوزها إلى شيء خارجها هو القواعد المستقلة بوجودها الموضوعى عن رغبات كل فرد من أفراد المجموعة .

فمنهم من يحاول — رغم إدراكه التام للقاعدة — أن يغالط أو يراوغ ، تحقيقا لرغبته أو مصلحته الذاتية وهى الكسب واتقاء الهزيمة أو الخسارة . وبعضهم أميل إلى الإذعان للقاعدة ، أى للخروج من ذاتيته الضيقة . ومعنى هذا الانتماء أو الولاء العاطفى لشيء موضوعى هو القاعدة الموضوعية التى لا تتأثر برغبات الأطراف المشتركة فى اللعبة ، بل عليهم هم أن يتأثروا بها .

وهذا الارتباط أو الولاء العاطفى هو الذى يستطيع وحده أن يحول« المعرفة الموضوعية » للقاعدة إلى « التزام » أو « ولاء » لايمكن بدونه أن تمضى اللعبة فى مسارها الصحيح ....

وهذا الولاء واضح جدا أنه متميز ومختلف تماما عن الولاء للمجموعة أو الذات الموسعة ، كفريق كرة القدم ، أو الاسرة ، أو « الشلة » ، أو « الاقليم » ... فالولاء للذات الموسعة ولاء عاطفى محض ، وذاتى محض ... ولذا كثيرا ما يفضى للتعصب الأعمى والتحيز ، الذى هو فى الواقع تحيز للذات ولكن بصورة غير مباشرة.

إن معنى تحيزك وإصرارك الانفعالى على أن فريقك أعظم فريق لا لشىء إلا انك تنتمى اليه وتحبه ، انك جعلت من « ذاتك » الفردية مصدرا للسلطات تريد فرض سلطانها التحكمى على العالم بأسره ، فليس هناك أساس واقعى موضوعى لتحيزك للفريق ، أو الحارة التى ولدت بها ، بل الاساس الوحيد هو تحيزك الشخصى أى رغبتك الذاتية . فتعصبك هنا لذاتك الموسعة انما هو تعصب لذاتك أنت ، وتمجيدك للمجموعة التى تتعصب لها ، إنما هو تمجيد فى الحقيقة لذاتك .

أما الولاء لقواعد اللعبة فولاء لاذاتية فيه ، لأنه لا يقوم على تضخيم أهمية الذات وتمجيدها ، بل يقوم على « إخضاع » و « قهر » و « إجبار »ذاتك على تنفيذ القاعدة مهما كانت النتائج ضد مصلحتك الذاتية .

وهذا هو النموذج الأول للولاء الموضوعى ، لقاعدة أو مبدأ كلى . أى مبدأ ليس جزئيا خاصا بحادث فردى ، ولا بذات أى شخص معين ، بل هو ملزم للكل على السواء .

وهذا بعينه هو نمط الولاء الأخلاقى بمعنى الكلمة ، بصرف النظر عن الاعتبارات الذاتية . إنه نمط « ما ينبغى » الموضوعى فى مقابل نمط الرغبات الذاتيه .

وهذا النمط يأخذ فى الحياة بعد ذلك أشكالا شتى . ولايزال موقف الناس منه ( وهم يمثلون أطراف مجموعة اللعبة ) متفاوتا من حيث مدى الالتزام الصادق — لدى من لديهم ميل أو استعداد لتجاوز ذاتيتهم — فقد يوجد من يتظاهرون — خوفا ونفاقا — بأنهم ملتزمون ، ولكنهم لا ينفكون يحاولون — ما أمكنهم المحاولة — أن « يغالطوا » لتحقيق رغباتهم الذاتية ، لأن ولاءهم الحقيقى لم يزل لها ، ولا يردهم عن المغالطة والمراوغة إلا يقظة بقية الأطراف واحتجاجهم عليهم . . .

●

والملاحظ للاطفال وهم يلعبون بالكريات ( البلى ) أن مجموعتهم الصغيرة يسمح حجمها بتركيز انتباه كل منهم على نشاط الآخر ، وتنبههم إلى أى خروج على القاعدة ، فسرعان ما ترتفع صيحات الاعتراض والاستنكار عند أول بادرة للمغالطة المقصودة ، أو المخالفة غير المقصودة .

ونلاحظ كذلك أن أحد اللاعبين إذا أراد مخالفة القاعدة على نحو معين ، واحتج عليه الآخرون ( أو الآخر لأن اللعبة قد تكون ثنائية ) يسكتهم بقوله :

— على وعليكم !

وقد يقبل الآخرون ذلك . ومعنى هذا أن من أراد تغيير القاعدة ، يعرف تمام المعرفة ويدرك تمام الإدراك أن تعديل القاعدة لا يكون إلا باحلال قاعدة أخرى محلها . فهى إذن قاعدة صالحة للاتباع ما دامت مستوفية للشرط الكلى فى القاعدة أو المبدأ ، وهو شرط « على وعليكم » . أى شرط تساوى جميع الأطراف فى الخضوع لها والالتزام بها .

وهذا هو الإدراك الذى يصاحبه إيمان بأن المبدأ أو القاعدة تمثل « ما ينبغى » ، وأنها فوق جميع الأطراف ، أى من مستوى يفوق مستوى ذواتهم من حيث هم ذوو رغبات ومصالح خاصة فردية ويترتب على هذه الفوقية الشعور بالإكبار أو الاحترام .

ولاشك فى وجود شعور منعكس على الذات نتيجة هذا الالتزام الموضوعى ولو على حساب الذات من حيث رغباتها ومصالحها . وهذا الشعور المنعكس هو « احترام الذات » لأنها كانت « أكبر »

و « أرقى » من مستوى رغباتها ومصالحها ، بارتفاعها إلى مستوى احترام القاعدة التى تمثل ما ينبغى .

ويصاحب هذا الشعور بالرضا عن الذات لهذا « التسامى » ، شعور جماعى من أطراف اللعبة الآخرين بأنه مارس اللعبة ، أى سلك مسلكا محترما يدعو لاحترامه .

وفى مرحلة تالية من العمر يتدرج الطفل من المنافسة الفردية الخالصة فى لعبة الكريات ( البلى ) إلى لعبة مثل كرة القدم ، ليست المنافسة فيها فردية ، بل بين مجموعتين ، ينتمى اللاعب لإحداهما .

وهنا يكون الموقف من قواعد اللعبة على تنويع مختلف عن الموقف فى ألعاب المنافسة الفردية . فها هنا يوجد ما يسمى « روح الفريق » أى الولاء العاطفى للفريق الذى يمثل « الذات الموسعة » كما يوجد الالتزام بقواعد اللعبة بازاء الفريق المنافس .

وها هنا أيضا يوجد مجال أكبر لتنوع السلوك الخلقى . فمن هم أميل إلى الذاتية الفردية رغم انتماءاتهم الذاتية الموسعة يحاولون انتهاز كل فرصة لاظهار امتيازهم الفردى على سائر أعضاء فريقهم ، بالاستئثار بالألعاب التى تبرز مهاراتهم الفردية وتستدر الإعجاب بأشخاصهم أو التصفيق لهم ، ولو أدى ذلك إلى شىء من تفويت فرص النصر على فريقهم ... فى حالة وجود من يعلمون أنه أقدر

منهم على تسديد الهدف وإصابته ، لو أنه « أنكر ذاته » بتمرير الكرة إليه .

أما من هم أميل إلى الولاء للفريق فيصنعون العكس ، ويبدو نشاطهم فى اللعب مدعما لروح الفريق وملتزما بها .

وبازاء الفريق المنافس ، نجد « الذاتى » من اللاعبين يحاول المراوغة من قواعد أو مبادئ اللعبة بالمخاشنة المستورة قدر الامكان لاعضاء الفريق المنافس ، بل يجنح أحيانا إلى الخشونة السافرة . فهو « أداتى » ، فاللعبة عنده أداة للنصر يستبيح فيها أى اسلوب ، بغير احترام حقيقى لقواعد اللعبة .

أما الملتزم غير « الذاتى » أى غير « الوصولى » ، فانه يحترم قواعد اللعبة ، ولو ضد مصلحته ومصلحة فريقه ...

وبهذا يتفاضل اللاعبون خلقيا . وبهذا أيضا يصح ما يقوله الناس من أن الملعب مدرسة لتكوين الأخلاق وممارستها ...

فعقدة القضية هنا ، هى الولاء « الموضوعى » للقاعدة أو المبدأ ، بحيث يكون مكيالا واحدا لا يتأثر بالاعتبارات الذاتية . بل هو واحد بالنسبة للجميع ، على حد سواء ، وبصرف النظر عن الذات المفردة ، والذات الموسعة ...

المكيال الواحد ،
الوظيفة الخلقية .

ها نحن إذن قد وصلنا إلى تحديد « الوظيفة الخلقية » لدى الانسان . وسوف نلاحظ هنا أنها وظيفة خاصة بالانسان ، لأنها من صميم تكوينه عندما يصل إلى مرحلة معينة من النمو النفسى والعقلى ...

فالولاء للقاعدة أو المعيار أو المبدأ الموضوعى هو حجر الأساس فى الوظيفة الخلقية ، التى تتلخص فى اعتماد وممارسة الكيل بمكيال واحد لجميع الأطراف الذين تشملهم هذه القاعدة الموضوعية ، على وجه المساواة المطلقة .

فوعى الفرد لوجود هذه القاعدة الموضوعية فى مستوى أعلى ومستقل عن جميع الاعتبارات الذاتية ، وأنه لا مفر من سريانها على جميع الأفعال التى تنظمها هذه القاعدة ، بما أنها تمثل « ماينبغى » أن يكون . وبالتالى لا مفر من أن يكون أى فعل مطابق لها هو الصواب . وأى فعل مخالف لها هو الخطأ . بصرف النظر عن شخصية الفاعل . بل بالنظر إلى الفعل فى حد ذاته .

وهذه العلاقة التنظيمية بين مستوى ما ينبغى الموضوعى الكلى وبين مستوى الفعل الواقعى الجزئى ، هى قوام الوظيفة الخلقية المعيارية عند الإنسان .

وهى وظيفة نابعة من هذا الازدواج بين مستوى الفعل الجزئى

وبين مستوى القاعدة الموضوعى الكلى . وخضوع ما يجرى فى المستوى الجزئى من الأفعال لحكم القاعدة الموضوعية الكلية .

ولما كان الحيوان خالياً من هذا الازدواج فى المستوى ، فليس له إلا مستوى واحد هو المستوى الذاتى الجزئى ، ولا إدراك لديه لما هو موضوعى كلى .. لأن الموضوعى الكلى معنى مجرد ، لايمكن أن يدركه الحيوان . والإنسان التام الإدراك العقلى هو وحده القادر على إدراك المعانى الكلية المجردة .

ونقول التام الإدراك العقلى ، لأن الناشىء لا يدرك هذه القواعد المعنوية الكلية إلا بعد أن يصل إلى مرحلة معينة من النمو فى قدراته العقلية . أما المتخلفون عن هذه المرحلة من النمو ، فشأنهم شأن الحيوان الأعجم فى العجز عن إدراك معنى القاعدة الكلية . ولذا فلا مسئولية على الحيوان ولا على الأبله . لأن المسئولية الأخلاقية فرع عن القدرة على إدراك القاعدة أو المبدأ .

•

فالمكيال الموضوعى الكلى ، الواحد بالضرورة ، هو الأساس الذى تعمل « الوظيفة الخلقية » بمقتضاه .. ومعنى أن هذا المكيال الموضوعى الكلى واحد بالضرورة بالنسبة لجميع الأطراف ، أنه يقتضى « المساواة » المطلقة فى الخضوع لأحكامه .

والحقيقة أن الطفل – متى وجد وسط أقران – سواء فى الأسرة

أو فى أى مجتمع خارجها يغدو شديد الحساسية لمسألة المساواة ، لاعن وعى فى البداية طبعا لمعنى المعيار الواحد ، بل عن فرط اهتمام ذاتى بذاته وأهميتها ورفض هوانها .

أجل لامانع لديه أن يكون محل تحيز وتميز على الآخرين . وهذا دليل على ذاتيته التامة . ولكن متى وجد تحيزا لطفل سواه تألم وغضب أو حزن أو احتج ، على حسب الأحوال ، وعلى حسب استعداده النفسى ، من ميل للانطوائية أو الانفتاح .

وعندما يشب عن الطوق يغلب عليه الاحتجاج على التحيز الذى يضعه فى الموضع الخاسر أو المغبون . ومن هنا تنشأ حركات الاحتجاج على الظلم . وكثيراً ما يصيح المغبونون فى المعاملة إن استطاعوا التصريح بألفاظ من هذا المعنى . ولعل من أشيعها استعمالا فى السنوات الأخيرة التعبير الدارج :

— كوسة ! كوسة !

أى أن المستفيد بالكوسة يرحب بها ، والمضار بالكوسة هو الذى يعيبها . فالدافع هنا لهذا الموقف ذاتى . إما ذاتية فردية ، أو ذاتية موسعة كما يحدث بالنسبة للفرق الرياضية ، بين أنصارها وخصومها ، حينما يبدو من الحكم ما يمكن تفسيره بالتحيز أو التحامل .

ولذا نجد أن هناك من يقولون أن شعار « المساواة » إنما هو

شعار طلب الأمان الذى يريد أن يتحصن به « الضعفاء » ضد جور أو تجاوزات الأقوياء للمعيار الواحد ، عندما يصل هؤلاء الناس فى نموهم إلى إدراك معنى المعيار الموضوعى الكلى . ويتمسكون باحترامه والولاء له .

ولكن الملاحظ أن « الشعور » بأهمية المساواة لحفظ الذات تبدأ منذ الطفولة المبكرة . ويستمر هذا الشعور طبعا مع الدخول فى مجتمعات أوسع ، وعندئذ — فى الوقت المناسب — يكون قد تم النمو الادراكى الذى يسمح بتعقل معنى القاعدة ، وأهمية احترامها وهى أهمية يشعر بها الضعفاء أكثر مما يشعر بها الأقوياء ، ولكن ذوى الاستعداد لتجاوز ذواتهم ، إلى درجة « الخروج على ذواتهم » الفردية أو الموسعة هم المؤمنون الحقيقيون بالموضوعية ، حتى عندما يكون من السهل عليهم مخالفتها لمصلحتهم .

●

ولكن من هم « الأطراف » الذين تسرى عليهم القاعدة الموضوعية الكلية ، أى قاعدة التعامل العادل ، بصورة واحدة هى صورة الكيل للجميع بمكيال واحد لاتفاوت فيه بحسب الأشخاص ؟

هذا ما تحدده الأنواع المختلفة للقواعد التى تستخدمها « الوظيفة الخلقية » التى شرحناها آنفا .

فقواعد اللعبة تؤخذ من تقاليدها أى عرفها السائد . وكذلك

قواعد التعامل فى المجتمع ، التى تحدد الحقوق التى تراها القاعدة طبيعية لجميع أفراده . وكثيراً ما يتلقاها الناس « جاهزة » من العرف السائد فى مجتمعهم .

ومعروف أن العرف الاجتماعى يختلف باختلاف المجتمعات فى الزمان الواحد ، بل إن العرف فى المجتمع الواحد قابل للتغير بتغير الزمن . ولايخلو كل عرف من فرض « المكيال الواحد » أى العدل الموضوعى لأعضاء هذا المجتمع المعين ، ولكنه قد لايفرضه بالنسبة للغرباء عنه . بل قد يوجب العمل بنقيضه بازائهم .

فمجتمع اللصوص فى العصابة الواحدة يفرض الأمانة على جميع أفرادها . وكثيراً ما يكون عقاب السلوك الأنانى المخل بالولاء للعصابة هو الموت . ولكن هذه القاعدة محدودة بعضوية العصابة وتوجب نقيضها بالنسبة لكل من ليسوا من أعضائها . فهؤلاء « يجب » أن تسرقهم كى تكون مخلصاً لمبدأ العصابة .

وهذا مجرد مثال . ومنه يتضح أن كلية القاعدة الأخلاقية العرفية ( أى المأخوذة من العرف الاجتماعى ) كلية محدودة النطاق . وأن المكيال ليس واحدا إلا فى داخل هذا النطاق المحدود ...

والعرف — لدى من وصلوا إلى أقصى نضج عقلى وولاء للموضوعية العقلية — قد لا يصلح مصدرا للقواعد الأخلاقية ، بسبب هذا الضيق فى نطاقه ، مما يجعله « متحيزا » لمجموعة معينة من الناس ، مع أن العقل الموضوعى يرفض هذه الحدود التعسفية ،

ويرى ضرورة شمول كلية المكيال الواحد للبشر كافة لتكون كلية مطلقة .

ولكن ليس كل الناس فى هذا المستوى ...

وهناك أيضا القواعد الكلية المطلقة التى ليس مصدرها بشريا : لامن العرف ولا من العقل ... بل من مصدر أعلى من البشر كافة ، هو المصدر الالهى ... أى قواعد الأخلاق الدينية . وإيمان المؤمنين بها يرتفع بها فوق العقل ، وفوق المناقشة .

ولكن المهم فى جميع الأحوال هو الالتزام بالقاعدة التى يعتنقها المرء . وأن يكون ولاؤه أو إيمانه بها دافعه إلى تغليبها على ذاتيته .

ويلاحظ أنه فى حالة الأخذ بمكيال أو قاعدة موضوعية كلية ليس مصدرها العقل المطلق . . سواء أكان مصدرها العرف أو الدين ، أن العقل فى هذه الحالة لا تكون مهمته القيادة ، بل مهمته التنفيذ ليس غير . ...

والموضوعية — موضوعية المكيال الواحد — فى جميع الأحوال ، هى محل الولاء ، وفى هذا الولاء يقوم « الخلق القويم » ، الذى يجرى العدل ، فينصف الآخرين من نفسه — طبقا للقاعدة الموضوعية — وينتصف لنفسه أيضا طبقا لها ...

فبغير الموضوعية لا أساس للاخلاق بالمعنى الإنسانى وبغير الولاء لها ، لا قيام للاخلاق ...

# الموضوعية ليست بلا ثمن *

يجب علينا ونحن نتحدث عن الموضوعية أن نكون موضوعيين ! ومن الموضوعية أن نقول أنها ليست شيئا هينا على جميع البشر ، وعلى حد سواء .

فالمشاهد الملاحظ أن الطفل من البشر يولد شبيها فى تكوينه وسلوكه بالحيوان . مركزا فى ذاته ، وكل نشاطه وسلوكه متصلان بحاجاته الحيوية والعضوية . ويظل سلوكه فى المرحلة الأولى بازاء جميع الأشياء سلوكا ذاتيا محضا ، وحسيا محضا فى إدراكاته ومعرفته بما يحيط به .

ويتطور الطفل فى إدراكه وفى سلوكه ، وتبدو له ملكات إدراكية وأنواع من السلوك تخرج به عن المستوى الذاتى الشبيه بمستوى الحيوان شيئا فشيئا . هذا صحيح . ولكن دوافعه الذاتيه التى مصدرها غرائزه وحاجاته الحيوية الأساسية تظل موجودة وجودا واضحا أصيلا ، إلى جانب المستوى الذى تطور إليه من حيث المعرفة والسلوك .

بل يتفاوت الأطفال فى سرعة ومدى أطوارهم الجديدة ، ولكن المستوى الأول لوجودهم الحيوى — أى الحيوانى — الذاتى المحض يظل موجودا . وشبيه هذا بالنبتة التى تبدأ بذرة دفينة تحت سطح التربة . وتتطور النبتة فى سبيلها إلى أن تغدو شجرة باسقة أو غير

باسقة ، وذات ثمر مر أو ثمر شهى ، وذات زهر مونق أو ذات أشواك ، سيان . ففى جميع الأحوال ، وفى شتى مراحل نموها وتطورها ، يظل لها جذر غائر فى التربة ، هو أصلها الذى يجب ألا ننساه مهما ارتفعت أبصارنا لتطاول ارتفاع الشجرة فى عنان السماء . ومهما أعجبنا بهاء زهرها وراقنا ثمرها أو روعتنا أشواكها ينبغى ألا ننسى أصلها الذى تقوم عليه ، ذلك الأصل الضارب فى أعماق الأرض .

هذا الجذر الموجود دائما ، أيا كان تطور الطفل ثم الناشىء ثم البالغ ، وأيا كان ارتقاؤه ، هو التكوين الحيوى الذاتى بمطالبه ودوافعه ونوازعه القوية ، الناشطة باستمرار ، فى شتى مراحل التطور الإنسانى .

ولئن كانت الموضوعية بمقدار تجاوز الإنسان لذاته وخروجه منها ، بل وخروجه عليها . فلا يمكن أن يكون هذا الخروج أيسر من الخروج من تأثير الجاذبية الأرضية ، ومحاولة التحرر منها . فهى موجودة الأثر فى جميع هذه المحاولات ، ولابد من مقاومتها والنضال ضدها .

ولكن ليس معنى مقاومتها أننا نسعى إلى الغائها واعدامها ، لأن معنى ذلك انتحار الانسان وانتهاء وجوده بالكلية ، مع أن المقصود هو الارتقاء بوجوده لا محوه . ولابد كى يرتقى من أن يظل موجودا

ولكن على نحو مختلف هو النحو الموضوعى الذى نعرف أنه أفضل وأرقى . وهو لا يمكن أن يظل موجودا إلا اذا بقيت جذور شجرة وجوده .... أى إلا اذا بقى له مستواه الذاتى ولكن فى نطاق لايتجاوز الحد الضرورى بحال من الاحوال .

فلو تركنا للمستوى الحيوانى الذاتى حبله على الغارب ولم نضع له حدودا ولم نكبحه كى يظل داخل هذه الحدود ، لاستولى على زمام السلوك كله وجعله ذاتيا ، أى حيوانيا مائة فى المائة . فى حين ان الموضوعية تقتضى الايمان والالتزام بالقاعدة الكلية التى تضاد بمكياها الواحد للجميع على السواء جموح الذاتية المستأثرة .

فكى تكون موضوعيا تلتزم بالامتناع عن أخذ ما هو أكثر من حقك ، المساوى تماما لحقوق كل شخص آخر من بنى البشر ، فتنصف غيرك بعدم الاستيلاء على ما هو من حقه ، وتنصف نفسك بعدم ترك غيرك يستولى على حقك . لأن الموضوعية معناها العدل . أما الذاتيه فمطلبها الجور ، أى الاستيلاء والأثرة ، ما كان ذلك فى إمكانها .

والذاتية كما قلنا موجودة فى جميع الأحوال بأثرتها واندفاعها مهما آمنت بالموضوعية . فالموضوعية لا تتم إلا بذلك « الانضباط الداخلى » الذى يجعل من التزامك أو إيمانك بها رقيبا يقظا على تصرفاتك ، حتى لاتنقاد لذاتيتك الطبيعية الأصلية ، بل تقاوم

اندفاعها وأثرتها ، وتجاهدها جهادا لا يمكن أن يفتر أو تغفل عنه لحظة واحدة . لأن نشاط فطرتك الأصلية الذاتية لا يمكن أن ينعدم تماما إلا اذا انعدم وجودك أصلا .

تموت مع المـــرء حاجاتـــه وتبقى لـــه حاجـــة ما بقى ..

ولذا يظل الموضوعى المؤمن بموضوعيته حارسا عليها ، ساهرا لحمايتها ، مرابطا لمجاهدة ذاته وأثرتها ، لا يغره سكون هذه الذاتية الظاهرى ، لأنها كالاحلام التى تتربص بك غفوة كى تظهر على المسرح وتبدأ نشاطها المصادر ...

ومعنى هذا أن هناك حدا معينا تتركه لنشاطك الذاتى وهو النطاق الذى لا جور فيه على حق غيرك . فلا بد لك من إشباع احتياجاتك الحيوية ، ولكن بالاسلوب أو « الطريقة » المشروعة ، أى التى لاتضير أحدا أو تجور على الحقوق العادلة لغيرك من الناس على أساس المكيال الواحد ، أو « القسطاس المستقيم » ...

ولأن الحاجات الذاتيه الحيوية ، فى أصلها الحيوانى غير المكبوح بالعدل الموضوعى ، عدوانيه جائرة مستأثرة لاتقيم وزنا لغير ذاتها، قيل أن النفس ــ أى النفس الحيوانية ــ أمارة بالسوء . أى بالعدوان والجور . ولذا كانت الموضوعية هى مجاهدة النفس الجهاد الاكبر ، أى الأعنف والأشد إرهاقا . .

وهذا هو ثمن الموضوعية .

ولذا يغرر بنا من يطالبنا بالموضوعية وهو يوهمنا أنها بلا ثمن ، فان ثمنها فادح ، هو مجاهدة النفس هذه المجاهدة المستمرة ، حتى نهاية العمر ...

•

وجدير بنا هنا أن نتنبه إلى أن طباع الناس ، أى « توليفة » نفوسهم ليست واحدة . فهناك من فى طبعهم حدة ، ومن فى طبعهم دماثة ، بل من فى طبعهم ضراوة وشراسة ، ومن فى طبعهم سلاسة .

والكشوف العلمية — ولاسيما فى مجال الغدد الصماء — أثبتت أن إفراز الهرمونات فى الدم له تأثير كبير على هذه الناحية . فزيادة بعض الهرمونات أو نقصها هو الفارق بين سلوك الصقور وسلوك الحمائم . وبين الميل للعدوان والافتراس ، والميل للموادعة وخفض الجناح . وبين الخيلاء والانطواء ... وهلم جرا .

وكثيرون من المطبوعين على الإجرام ، هم فى الواقع العلمى « مجنى عليهم » لأنهم فريسة اختلال فى إفراز هرمونات معينة ، لذلك يعالجونهم فى مؤسسات معينة بالغرب بالجراحة ، أو بالعقاقير ، فتزول منهم ضراوتهم التى كانت مستولية عليهم ولا يملكون لها دفعا . . وبذلك انفتح الباب لتعديل مصادر السلوك الذاتى ...

ومهما يكن من شيء ، فهذا يطلعنا على أن جهاد النفس ، التزاما بالموضوعية فى السلوك — التى هى أساس الأخلاق بمعنى الكلمة —

ليس أمرا متساويا فى صعوبته أو سهولته ، بسبب تباين التكوين الحيوى للبنية البشرية ... وليس من يركب نمرا هائجا أو حصانا وحشيا جامحا ، كمن يركب أتانا ذلولا ....

نقول هذا قياما بالموضوعية ... وإقرارا بأن الفضيلة فى هذه الحالة مرتبطة بمقدار الجهد المبذول ، وصدق الجهاد ، بصرف النظر عن الهزيمة أو النصر ...

ولعل البحوث العلمية المتقدمة ، متى عممت ، تنقذ الكثيرين من مصاعب تكوينهم الذاتى ، وتفتح الباب لعصر جديد فى الأخلاق البشرية ، تغدو فيه « الموضوعية » ميسرة للكافة ، أى صفة « ديمقراطية » لا تحتاج — كما هى حتى الآن — إلى فروسية تصل فى بعض الطباع إلى حد الاستماتة او الاستشهاد ؟؟؟

***

ما فوق الموضوعية

اذا كان المستوى الذاتى فى السلوك ، هو مستوى مادون، أى « ما تحت الأخلاق ». وكان المستوى الموضوعى هو «مستوى الأخلاق» الذى ينفرد به الإنسان دون سائر الحيوان ، لقيامه على نشاط « الوظيفة الخلقية » المستمدة من صميم تكوينه المزدوج المستوى . فهل هناك مستوى ثالث ، هو مستوى « ما فوق الموضوعية » أو « ما فوق الأخلاق » ؟ .

إن الذاتية هى مستوى « الأثرة » . أى الأنانية الآخذة غير المانحة .

والموضوعية هى مستوى « العدل » أى تجاوز الذاتية والخروج على حكمها كى يحل « المكيال الكلى الواحد » محل « الأثرة » بحيث تحرص على ألا تحتفظ بما هو أكثر من حقك المساوى لحق سواك .

ولكن هذا الذى هو من حقك دون سواك بمقتضى العدل أى الموضوعية ، إذا ما ملت إلى منحه او النزول عنه طوعا لأحد أو جماعة أفراد سواك ، فهذا هو « الإيثار » ...

وإذا كانت السعادة بالأخذ « أثرة » . وكانت السعادة بالتزام العدل وكبح الذات عن الجور « موضوعية » . فان السعادة بالمنح والبذل والعطاء « كرم » لا شك فيه . فاحتفاظك بحقك ورد نفسك ونزولك عما ليس من حقك ليس كرما ، وإن كان من فضيلة العدل

بلا مراء .. أما نزولك عما هو من حقك قطعا فهذا هو التكرم وسخاء النفس .

وهذا مستوى من السلوك يعلو فوق مستوى الموضوعية ، الذى هو مستوى « الخلق القويم » .

إنه مستوى « الخلق الكريم » .

وبه وحده تقوم « مكارم الأخلاق » التى هى النقيض الأقصى — من حيث هو « إيثار » محض — للمستوى الذاتى أى الحيوانى ، من حيث هو « أثرة » محض . وفيما بين النقيضين يقوم مستوى الأخلاق الموضوعية ، التى تقاوم الأثرة وتكبحها ، ولكنها لا تذهب إلى حد « الإيثار » ، أى « التضحية » ... إعزازا للآخرين ورحمة بهم أو محبة لهم .

ولئن كانت الأثرة « دون الأخلاق » الإنسانية ، وكانت الموضوعية صلب الأخلاق الإنسانية وصرحها الأساسى ، فان الإيثار هو تاج الأخلاق الإنسانية ، الذى لا يقوم إلا فوق ذلك الصرح الأساسى .

وهذا لا يكون سلوكا طبيعيا للمرء إلا إذا بلغ درجة من النمو النفسى تتجاوز الحرص على الذات ، وتتجرد من التمسك بالتناظر ، والتساوى مع الآخرين ، وتتخلى عن ربط قيمة الفرد بما يتعفف

عنه من الجور أو الأثرة ، بل بما يمنحه ويعطيه طواعية ، أى بغير رهبة ، أو توسلا لمنفعة خاصة .

فغنى عن البيان أن البذل تحت ضغط الرهبة ، أو اتقاء لضرر ، أو استدراجا وتصيدا لمنفعة ، إنما هو فى حقيقته سلوك ذاتى نفعى لا يرقى إلى مرتبة الأخلاق بمعناها العادى القويم .

فالعطاء أو الكرم لا يكون إلا عن سعادة خالصة بهذا البذل ، لأن هذا البذل يحقق معنى وجود المانح ، ويقوم دليلا قاطعا على أنه تطور من مرحلة « الأثرة » الممتصة ، إلى مرحلة « الإيثار » الإشعاعية . فتغيرت سجيته من التكالب على الامتصاص والاستحواذ ، إلى الاشعاع ، مثلما يشع الضوء من منبعه الطبيعى ، كالشمس مثلا ... والمرء حيث يضع نفسه باختياره ...

وهكذا يكون الإنسان قد تحول من النقيض إلى النقيض ورحم الله ابن جريج :

وعسير بلــوغ هاتيك جــدا
تلك عليـــا مراتب الأنبياء ...

فهى مرتبة من النمو النفسى لا تدانيها مرتبة . ولكن ندرتها وصعوبتها لا تقلل من قدرها ... لأنها كالمثل الأعلى : قبلة ينبغى أن تتجه إليها الضمائر ، وتهفو إليها البصائر ، وتتغياها المصائر .. ... وسلام على الصادقين ...

## أهم مراجع هذا الباب

من شاء التوسع فى مضمون هذا الباب ، فنى وسعه الرجوع إلى مذهبى الفلسفى الذى أطلقت عليه « الفلسفة التعبيرية » ، على ما وضحناه فى كتابنا :

« نحو مفهوم إنسانى للانسان » .. نشر مكتبة غريب بالفجالة ...

## ـ ٢ ـ

## وجاءت المسيحية ...

تلك تأتى أولا ...

«لاتظنوا أنى جئت لأبطل الناموس والأنبياء . ما جئت لأبطل بل لأكمل » — ( متى ٥ : ١٧ )

هكذا يقول السيد المسيح .

فالناموس بمبادئه السلوكية يأتى أولا . وهو الأساس الذى يرتفع فوقه بناء المسيحية بعد ذلك ، لا قبله .

فلئن كانت الوصية الأولى مبدأ اعتقاديا إيمانيا تعبديا ، لأنها تتعلق بوحدانية الله ، لأنه خالق كل شيء ومصدر وجوده ، وكانت الوصية الثانية تأمر باكرام الأبوين لأنهما أصل الوجود الأرضى . فان سائر الوصايا العشر ، التى هى أساس الناموس الذى جاء به موسى عن الله فى سيناء ، مبادئ سلوكية ينبغى أن يلتزمها المرء المؤمن بما جاء من ربه كى يكون سلوكه أخلاقيا ، مطابقا لمعيار الصواب .

هذه الوصايا ، أو المبادىء الموضوعية الكلية ، التى حددها الناموس ، وصايا سلبية ، أى ترسم الحدود التى تعد سياجا للسلوك الخلقى القويم . فكل من خرج على هذا السياج وقع فى الخطيئة . وهذا السياج ذو خمسة أركان :

١ — لا تقتل !

٢ — لا تزن !

٣ – لا تسرق !

٤ – لا تشهد على قريبك شهادة زور !

٥ – لا تشته بيت قريبك ، لاتشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك ! .

•

هذه إذن حدود الحرام ، وكل ما ليس حراما فهو حلال .

ونظرة إلى هذه النواهى السلبية تدلنا على أنها معالم على الطريق إلى « تجاوز الذاتية » . أى أنها نواه موجهة ضد الذاتية ، ولصيانة موضوعية السلوك .

والوصية الأولى فى الناموس ، هى العظمى ، وهى تلك التى عناها السيد المسيح عندما سأله أحدهم ( متى ٢٢ : ٣٦ )

– يا معلم : ما هى الوصية العظمى فى الناموس ؟

فقال له :

– « أحبب الرب إلهك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع ذهنك »

تلك هى الوصية الكبرى والأولى .. والثانية مثلها : « أحبب قريبك حبك لنفسك » . بهاتين الوصيتين يرتبط كلام الشريعة كلها والأنبياء .

فالإيمان بالله والتعلق به بكل طاقة القلب والنفس والذهن ،

هو الذى يجعل كل تفكير وكل رغبة وكل فعل متعلقا بما يرضيه سبحانه .

وهذا الإيمان القاهر ضرورى جدا لمقاومة كل نوازع الذاتية الطبيعية التى تدفع إلى المحرمات التى ذكرنا ها فى تلك الأركان الخمسة . من اعتداء على الأنفس بالقتل ، وعلى الأعراض بالزنا ، وعلى الملكية الخاصة بالسرقة . وعلى الحقيقة الواقعة بشهادة الزور .

وهذه الدوافع الذاتية يؤججها للعدوان شعور أنانى هو الحسد واشتهاء ما للغير من طيبات .

فبادئ الناموس إذن إنما هى مرشد إلى الموضوعية ، يستلهم الإيمان بالله ويستمد من هذا الإيمان ما يعينه على مقاومة الذاتية وتجاوز نطاقها ... وبذلك يقوم أساس « العدل » .

ولذا كان طبيعيا أن تكون الوصية التالية للايمان بالله والتعلق بمحبته ، هى « محبة القريب » ... كى تكون هذه المحبة درعا تتحصن به النفس البشرية ضد نوازع الذاتية الأنانية التى تتلظى بالحسد وتدفع بالتالى إلى العدوان .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نلاحظ السمة التربوية فى استخدام لفظ « القريب » . وأن نلاحظ أيضاً دلائل التطور الذى يدخل على مفهومات الألفاظ مع ارتقاء البشر فى الحضارة والفهم ، بحيث تتجه مدلولاتها من الضيق إلى السعة ، ومن الحقيقة المادية إلى الحقيقة المعنوية .

●

أما السمة التربوية التى نلاحظها ، فهى استخدام هذا اللفظ « قريبك » بما يوحى بالتذكرة والتبكيت لأى نزوع إلى الشقاق . ففى هذا الاستخدام حض واضح على توسيع معنى الذات :

— أحبب قريبك حبك لنفسك ؟

فحين تخلط قريبك بنفسك بحيث يصبح إحساسك به عين إحساسك بنفسك ، لايمكن أن تنظر إليه نظرك إلى « أداة » أو « وسيلة » أو « فريسة » لإشباع حاجاتك الذاتية . فهذه النظرة « الأداتية » أو « الانتفاعية » هى النظرة الطبيعية لدى الحيوان الأعجم ، ولدى الوليد من بنى الإنسان : يرى فى كل موجودات البيئة المحيطة به مصادر لإشباع نوازعه واحتياجاته الطبيعية ، سواء أكانت هذه الموجودات جمادا أو نباتا أو حيوانا أو بشرا . فعلاقته بكل من عداه وما عداه علاقة « استهلاكية » .

أما متى اتسعت دائرة ذاته ، فان من يدخلون داخل نطاق هذه الدائرة الموسعة لا يكونون بعد ذلك مادة لأغراضه الاستهلاكية أو الانتفاعية ، بل يكون ما هو موجود خارج هذه الدائرة الموسعة هو المادة التى يستخدمها أو يسعى لاستهلاكها لمصلحة المجموعة التى صارت « نفسه الجديدة » أو « ذاته الموسعة » .

وتوسيع الذاتية أول مرحلة فى الاتجاه إلى « الكلية » ... لأن الشخص عندئذ يعامل أفراد هذه الدائرة معاملته لنفسه ، أى يستخدم

ـ بداهة ـ مكيالا واحدا لهم وله . والكيل بمكيال واحد ـ ولو على نطاق محدود ـ هو علامة الخروج من بؤرة الذات الفردية ، والاتجاه إلى تجاوز الذات .

والملاط ( أى المونة أو الأسمنت ) الذى يربط الوحدات الفردية داخل هذه الدائرة الموسعة للذات هو ذلك الشعور المناقض تماما للأنانية . إنه « الحب » أو « المحبة » .

وكأنى بهذه المبادىء التى يتضمنها « الناموس » تقوم بدور المربى الذى يعلم الطفل كيف يمشى بدلا من أن يحبو ... ويتدرج به فى التدريب والتعويد ، إلى أن يستقيم له السير بغير معين ، وكأنه بحكم المران طبيعة ثانية له ... وعندئذ يتكفل باكتشاف مساراته بنفسه على هدى ما تعلمه فى تلك الدروس الأولى ، وبفضلها .

فالبشر بعد ـ عند مجىء الناموس ـ كانوا غلاظ الأكباد ، أى يعيشون تحت نير الأنانية وغرائزها الأولية ، التى تقربهم فى السلوك من الحيوانات العجماء . فكان لابد من الاستعانة بوشيجة اللحم والدم أو صلة الرحم ، أى « القرابة » القبلية و العشيرية ، كى يتعلموا فيها توسيع ذاتيتهم ، ويتدربوا فيها على « محبة القريب محبتهم لأنفسهم » .

ومع ارتقاء الحضارة ونمو الفهم ، والتدرب على « توسيع الذاتية » فى مدرسة صلة اللحم والدم ، أمكن أن يتطور المعنى اللغوى للفظ « القريب » ، ليزداد سعة وشفافية طورا بعد طور .. وتتسع معه دائرة الذاتية ... أى نطاق موضوعية « المكيال الواحد » الذى

هو أساس العدل فى كل العلاقات البشرية ... فيتجاوز معنى القريب الأخ و ابن العم وابن الخال ، ليشمل أبناء « السبط » أو « القبيلة » كلها ... ثم أبناء الأمة بأسرها بعد ذلك . لينتهى الأمر بعد أجيال وأطوار إلى معنى الأخوة فى الإيمان الدينى الواحد ، ثم أخيراً — بمجئ المسيح — إلى معنى الأخوة فى الله ، الشاملة لجميع خلقه .

●

ومهما يكن من شىء . فها نحن قد رأينا أن الأساس فى الأخلاق المسيحية ، ذلك الأساس الذى سيرتفع فوقه بناؤها المتميز ، إنما هو الناموس . ورأينا أن الناموس إنما هو « المبادئ أو المعايير الموضوعية الكلية » التى إن خرقها سلوك المرء صار ذاتيا ، أى مجافيا للأخلاق... ورأينا أن هذه المبادئ الكلية هى المعالم التى توجه السالك إلى تجاوز ذاتيته فى كل أفعاله .

فتجاوز الذات هو حجر الأساس فى موضوعية الاتجاه وأخلاقية السلوك البشرى .

والموضوعية هى عتبة الأخلاق المتمثلة فى « العدل » وفى « المكيال الواحد » ... أو هى مفتاح باب يفضى إلى ما يجاوزه ، ولكن لاغناء عن المفتاح لمن أراد دخول القصر المنيف .

إنها « الحد الأدنى » ... الذى لايكفى وحده لقيام مكارم الأخلاق ... التى نجد أنفسنا الآن على أبوابها ..

أليس هو القائل : إنما أتيت لأكمل

وهذا لا يكون إلا لما هو دون الكمال المنشود .

ولماذا لا تكفي ؟ . .

وما وجه النقص فى شريعة الناموس ، التى ترسم الحد الفاصل بين الصواب والخطأ ، فكل ما يتجنب الخطأ فهو صواب ؟

وهل فوق الصواب شيء ؟

أجل ! فوقه كل شيء !

فالصواب الذى حدد تخومه الناموس إنما هو صواب انعدام الخطأ . إنه أشبه بعلامة الصفر المئوى فى مقياس درجات الحرارة ، التى دونها تكون الحرارة سلبية . وعندها لاتوجد حرارة سلبية ، ولا إيجابية أيضاً ؟

إنها النقطة التى يبدأ منها الوجود الإيجابى للحرارة .

وكذلك خط انعدام الخطأ ، عنده يبدأ الاتجاه إلى مراتب الصواب . ولكن هذا الخطأ فى حد ذاته ليس شيئاً إيجابيا بمقاييس الصواب .

وقد يكون من المستحب ها هنا أن نضرب مثلا من عالم الإنسان لا من عالم الفيزياء . ولنفرض إذن أن شخصا ما جاء يحمل « صحيفة أحوال جنائية » تشهد بأنه « خال من السوابق » ، أى لم تصدر ضده أحكام جنائية . فهل تكفى هذه الشهادة الرسمية للدلالة على أنه شخص فاضل ذو مروءة ونخوة وصدق وما إلى ذلك ؟ أتكفى هذه

الشهادة مؤهلا أخلاقيا كي تقبل مصاهرته . إن تقدم بموجبها يطلب يد كريمتك ؟

الجواب البديهي — عند كل عاقل — أنها لا تكفي لتزكية خلقه . بل هي دليل على أن صحيفته « بيضاء بغير سوء » ، فليس في « ملفه » ما يعيبه . ولكن لا دلالة لها على وجود ما يشرفه .

وهذا هو الفرق بين العلامات السلبية والعلامات الإيجابية . أو هو الفرق بين الأخلاق السلبية والأخلاق الإيجابية .

وهنا أيضاً نلاحظ ما تقتضيه الطبيعة من التدرج في مقتضيات التربية وفقاً للتدرج في مراحل النمو . فكما تبدأ بتعويد الطفل على الوقوف مستنداً إلى شيء ثابت ، ثم مستقلا بنفسه في وقفته غير مستند إلا إلى قدرته الخاصة على التماسك في هذا الوضع الرأسي ، بعد أن كان وضعه أفقياً وهو يحبو على أربع . فيكون الوقوف مستقلا بداية — مجرد بداية — لا تكفي وحدها ، بل يجب التدرج بعد هذا في تعويده على التحرك على قدميه ، معتمدا أول الأمر على شيء ، ثم مستقلا بحركته ، إلى أن يتقن المشي ، ثم يتعلم الجرى ، وتصير الحركة المستقلة على قدميه طبيعة ثانية له ، أشبه بالغريزة التي لا تخطىء .

نقول على غرار هذا التدرج ، يكون ناموس المبادئ السلبية أو النواهي بمثابة مرحلة السير معتمدا على سياج يسد منافذ السقوط...

حتّى إذا أتقن المشي مستقلا لم تعد هناك حاجة إلى السياج ، لا لأن الوقوع الذى كان السياج يحميه منه أو يمنعه صار مطلوبا أو مسموحا به ، بل لأن الطفل ارتقى بقدراته ، وصار السياج فى داخله ، فلا حاجة به إلى سياج خارجى .. وهذا هو « الانضباط الداخلى » .

فالاستغناء هنا عن حصر الجهد كله فى توقى السقوط ليس استباحة للسقوط ، أو عجزاً عن التقيد بما يمثله السياج من موانع ، بل فرط قدرة هى فى حد ذاتها خير ضمان وأمان ضد السقوط ...

ولابد أن يرمى الناس بالبلاهة من إذا أتقن السير والجرى ، ثم ظل يحصر همه كله فى توقى العثرات ... حتّى لايكاد يقدم على حركة أو ينشط لمسعى . لأنه عندئذ يهدر قدرته ويجهل مدى طاقتها ، فلا يحسن استغلالها فى غايتها الأساسية التى جعلت لها ، وهى السعى فى مناكب الدنيا لتحقيق أغراض متباينة ، خالى الذهن من مشاغل الأطفال الصغار الذين يتوهمون — وهم ينقلون أقدامهم فى أوائل عهدهم بتعلم المشى — أن كل خطوة إنما هى هوة فاغرة لابتلاعهم !

وهكذا أيضاً تكون مرحلة حصر المهمة كلها فى تجنب النواهى أو الخطايا الأخلاقية فى السلوك قد انقضت منذ أمد طويل ، وصار على الإنسان الذى أتقن السلوك السليم واقتدر عليه أن يعلو بسلوكه واهتمامه فوق مجرد توقى الأخطاء ، لينطلق بسلوكه محققاً فضائل إيجابية ، لا لأنه متحرر من قيد الخطايا عاجز عن التقيد بها ، بل

لأنه صار أرقى من أن يشغل نفسه بذلك ، علوا عليها لا قصورا عن توقيها .

ولكن الذى أتقن السير والحركة مستقلا بنفسه ، بحاجة إلى خريطة ، وإلى بوصلة ، كى يعرف أين يتجه ... فلئن كان من يتعلم المشى بحاجة فى الأسابيع والشهور ، بل والسنوات الأولى إلى من يراقب انطلاقاته ، أو يصحبه ليهديه السبيل حتى لايضل طريقه... إلى أن يبلغ أشدة فيعرف من تلقاء نفسه ماذا يسلك من السبل ، وكيف يسلكها ، ولماذا يسلكها ، فكذلك الإنسان فى طفولته العقلية والخلقية كان بحاجة إلى من يدله على كل خطوة ، ويصحبه فى كل اتجاه . فما أشبهه بالمكفوف البصر ، الذى يحتاج إلى من يأخذ بيده كى يعبر الطريق ، ويرشده إلى غايته .

أما المبصر ، فيستغنى ببصره عمن يقود كل خطوة من خطواته ، وكذلك الإنسان متى بلغ أشده حضاريا وأخلاقيا ، تقوى بصيرته على تسديد خطاه فى كل انطلاقاته . فيستغنى بالبصر والبصيرة عن الوصى الملازم له .

هذه البصيرة هى « البوصلة » الداخلية التى لابد منها لمن يتجاوز طور الأخلاق السلبية المتمثلة فى الناموس ..

وإلى هذه « البوصلة » الداخلية يحيل المسيح الناس ، وهو ضامن لهم ألا تخذلهم فى هداية سلوكهم الإيجابى ، الذى يرتفع كالبناء الشاهق فوق الأساس الغائر فى الأرض ، الذى لابد منه قبل رفع البناء ، أساس الناموس ، الذى أنزله الله على موسى فى سيناء .

الدعوة الجديدة :

« أنظروا فى أنفسكم ! »

— لن تحتاج أيها الإنسان ، إن أنت أمعنت النظر فى ذات نفسك ، أن تذهب إلى بعيد كى تكتشف ينبوع الهداية الذى يكفيك ويغنيك عن الاهتداء بأى شئ آخر ، أو أى أحد !

هذه هى الدعوة الجديدة !

ولقائل أن يقول أنها تشبه دعوة كانت قبل المسيح بعدة قرون فى ساحات أثينا ، أطلقها سقراط :

— أعرف نفسك بنفسك حق معرفتها !

ولكن دعوة سقراط دعوة عقلية ، أما دعوة المسيح فدعوة روحية دينية ، لها سند من التوراة ، ومن كيفية خلق الله آدم وسلالته .

إنها الرجعة إلى النبع الإلهى ، رجعة دينية روحية .

●

« خلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه ! »

هكذا يقول سفر التكوين — أول أسفار التوراة — فى الفصل الأول منه ، فى العدد السابع والعشرين .

والصورة هنا ليست الهيكل الجسمى المادى بطبيعة الحال ، بل الصورة المعنوية الباطنة ، والتى يعنيها الفلاسفة فى مقابل المادة غير المعينة .

فالانسان ، بموجب هذا النص التوراتى، بموجب هذا المعنى ، نفحة من روح الله . وله جسد ذو حياة نامية حاسة يموج بالرغبات والمطالب .

ووسط مهارج هذه الرغبات والمطالب تنطمس حقيقة الروح أحيانا كثيرة ، أو تتشوه ويعلوها الصدأ . ولكنها لا تندثر .

فمن عرف نفسه حق معرفتها .— بهذا المعنى الروحى — عرف أن من السماء عنصرها ، وينبغى أن تكون السماء قبلتها دون سائر القبلات ، وإليها وحدها ينبغى أن يكون اتجاهها ، وبها وحدها يكون انشغالها .

والله فى المسيحية ليس له من تعريف أصفى وأسمى من أنه — سبحانه وتعالى — « محبة » محبة مطلقة لا متناهية وليست لها حدود . لأن الجسمى وحده هو الذى يكون متناهى المقدار محدودا فى المكان أو الزمان أو كليهما . أما الله فليس جسما وليس فى جسم .

وها هو يوحنا ، تلميذ السيد المسيح الذى كان يحبه يقول فى رسالته الأولى ، فى الفصل الرابع منها :

— أيها الأحباء : فلنحب بعضنا بعضا ، لأن المحبة من الله . **وكل من يحب فقد ولد من الله** ، ويعرف الله . ومن لم يحب لم يعرف الله ، **لأن الله محبة** ( ٨،٧ ) .

ثم يثنى فى العدد السادس عشر من ذلك الفصل نفسه قائلا :

— الله محبة ! من أقام فى المحبة أقام فى الله وأقام الله فيه !

ولأن الله محبة ، ولأن المحبة قانون الروح الأسمى ، وينبغى أن تكون الينبوع الحى للسلوك البشرى الأمثل ، كانت الصلاة التى علمها السيد المسيح الناس بادئة هكذا :

— يا أبانا الذى فى السماء ؟

ومعنى الأبوة هنا هو المعنى المطلق غير الجزئى ولا الجسمى . بمعنى الأصل ومصدر الإيجاد الأقصى . إنها أبوة الخلق لا التناسل ، وأبوة العناية والرعاية التى لا انقضاء لها .

وبهذا المعنى يجدر بنا أن نعدها الأبوة الأصلية ، وأن تكون أبوة التناسل شبها بعيدا لها . وإلى هذا يشير المسيح بصريح النص . فى الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متى ( العدد ٩ ) :

— لا تدعوا لكم أبا على الأرض ، لأن أباكم واحد ، هو الذى فى السماء !

والكلام هنا يعم بنى الإنسان جميعا ، بما أن الله خالقهم — أى أبوهم السماوى — جميعا ، ولا يخص المنتسبين إلى ديانة معينة .

وإلى هذا المعنى نفسه يشير قول من جادلوا المسيح من اليهود ، كما ورد فى الفصل الثامن من بشارة يوحنا ( العد ٤١ ) :

— لنا أب واحد ، هو الله !

مما يدل على أن هذه الابوة كانت قضية مسلما بها قطعا عند اليهود — اتباع الناموس والتوراة — قبل مجيء المسيح .

•

وماذا يترتب على هذا الاكتشاف الخارق الفريد ، اكتشاف أن صورة الانسان الباطنة ، التي هي حقيقته المميزة له من حيث هو إنسان ، أنه نفحة من روح الله ؟

يترتب عليه شئ خطير ، هو الشعور العميق بالاغتراب في حياة الجسد على الأرض . ويترتب على عمق الاغتراب عمق الحنين إلى موطن الإنسان الحقيقي . موطنه الروحي .

وبهذا لا تنفرد النوازع الذاتيه الجسمية بالسلطان عليه ، ذلك السلطان الذي يجعله يستسلم لها وينقاد ، وأحيانا يتهالك عليها . فأمام هذا القطب الذي تمثله جاذبية الذاتية الجسمية ، يقيم هذا الاكتشاف الروحي قطبا لجاذبية أقوى منه بما لا يقاس . قطبا لجاذبية العلوية المضادة لجاذبية السفلية .

عمق الاكتشاف وعمق الاغتراب وعمق الحنين يتوقف على ماأشرنا إليه فيفصول سابقة من قوة الاستعداد للتقمص الوجداني ، أي الاستعداد النفسي للايمان .

فبقدر شدة هذا الإيمان تكون شدة الاتجاه إلى القطب العلوي — وهو الله — والتلهف على الخلاص من القطب السفلي الذي يمثل

جاذبية الجسد ونوازعه للتفرغ لحياة الروحية ، حياة المحبة الخالصة..
أما من قصرت قوة إيمانه بمصدر عنصره الحقيقى ، فطبيعى ألا يتجه إليه بجميع نفسه وجميع قلبه وجميع ذهنه ، ويظل موزعا بين الروح ومطالب الجسد ، فلا يتم « خلاص نفسه » .

وهكذا يتجلى ما تتسم به المسيحية من « استقطاب » روحى. أى الاتجاه إلى قطب الجاذبية الإلهى الروحى بمجموع العقل والقلب والنفس .

أليست هذه هى الوصية الأولى ، كما جاءت فى سفر التثنية بالتوراة :

— أحبب الرب إلهك من كل نفسك وكل قلبك وكل ذهنك ؟

وهل بعد هذا الانصراف الكلى بمجموع النفس والقلب والذهن تبقى بقية من المرء للاهتمام بالأرضيات والنوازغ الجسمية ؟

وهكذا يستأثر القطب الإلهى الروحى — قطب المحبة الخالصة — بالانسان ، بحيث يكاد يتلاشى تأثير القطب المقابل ، وهو القطب الجسدى السفلى ...

وعندئذ يتلخص دستور السلوك فى بند واحد ، هو المحبة الخالصة التامة .

والمحبة هى العطاء . أى منح الذات للمحبوب . ووقف كل

تشاط المرء وحياته عليه وعلى خدمته . والمنح هو الكرم . وهكذا تدخل مجال « مكارم الأخلاق » .

وبعبارة أخرى تكون المحبة ليست تجاوز الذاتية ( إلى الموضوعية ) فحسب ، بل الانتصار على الذاتيه بعملية « إيثار » من جميع الوجوه فى شتى المجالات . فكل انتصار على « أثرة » الذات والذاتية ، وكل دحر لهما ، فهو تمكين للايثار . وإقامة لملكوت « مكارم الأخلاق » .

وبمعنى آخر ، تكون دعوة المسيح ، علوا على ناموس « الموضوعية » و « العدل » ... هى الدعوة إلى البر الصحيح . البر الروحى . إلى التفرغ الكامل للايثار ، ومكارم الأخلاق .

***

**ولكن كيف ؟ . .**

وكيف يعيش إنسان متفرغا لمحبة الله ؟

أمعنى هذا أن السبيل الأوحد للحياة الفاضلة ، هو سبيل العزلة للتعبد والهيام فى الحب الإلهى ، ونفض اليدين من كل عمل إلا التهجد والتسبيح ؟

ما من شك — بداهة — أن هذا السبيل أسلوب يتفق منطقيا مع خلوص القلب والاتجاه بمجموع النفس والذهن وبأقصى الطاقة الى الله . ولكن أهو السبيل الأوحد ؟

كلا ! ليس هذا هو السبيل الأوحد .

فالله خالق الكل . والبشر جميعا أبناء هذا الأب السماوى . فالبشر جميعا إذن إخوة فى الله ، يستوى فى هذا من يعرف هذه الحقيقة ومن يجهلها .

فمن يحب الأب ، يحب لحبه أبناءه جميعا .

ومن يحب الله ، يحب جميع البشر ، لأنهم أبناء الله .

وإلى أبوة الله للجميع — هذه الأبوة الفريدة التى تجعل خليقته من البشر جميعا أبناء له بهذا المعنى الرفيع — يشير بولس فى رسالته إلى أهل أفسس ، فى الفصل الرابع منها ، بقوله :

— إله واحد وأب واحد للكل ، الذى على الكل ، وبالكل ، وفى كلكم .

أو كما جاء فى الترجمة الكاثوليكية الحديثة ( العدد ٦ ) :

— إله واحد أب لجميع الخلق وفوقهم جميعا ، يعمل فيهم جميعا ، وهو فيهم جميعا .

والمعنى فى الترجمتين واحد ، وهو يبرز أبوة الله لجميع خلقه .

●

والابن الحق ، الذى يحب أباه حقا ، هو من يحاكيه وينسج على منواله . والله محبة . فمن يحبه حقا تكون حياته كلها ومشاعره كلها وأفعاله كلها محبة خالصة لعباد الله أجمعين ، لأنه سبحانه يحبهم أجمعين ، ويعولهم ، ويكلأهم بعنايته الصمدانية فى كل حين .

الله محبة . والله كامل .

فأبناء الله إذن ينبغى أن يكون الكمال شغلهم الشاغل !

وها هو يوحنا فى رسالته الأولى يصيح بالمعهود فيه من الحمية والحماسة المتقدة :

— كل مولود من الله لا يقترف الخطيئة ... لا يسعه أن يخطئ وهو مولود الله ! وشد ما يختلف أبناء الله عن أبناء ابليس ، فمن لا يعمل البر ليس من الله ( ٣ : ٩ و ١٠ )

وأى عجب فى هذا ؟

أليس المسيح نفسه هو القائل فى موعظة الجبل ( متى ٥ : ٤٨ ) ،

– فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوى كامل !

كاملين فى المحبة . أى محبتهم لا استثناء فيها لأحد ، بل تشمل الكافة من بنى الانسان .

أبلا استثناء حقا ؟

أجل ! ولا مناص من هذا لمن أراد أن يكون مولودا لله !

ولذا كانت الوصية التالية مباشرة ، فى سفر التثنية ، للوصية الأولى والعظمى التى هى محبة الله :

– احبب قريبك حبك لنفسك !

وها هو المسيح يقول بالنص فى موعظة الجبل ( متى ٥ : ٤٣ ) .

– سمعتم أنه قيل « أحبب قريبك وأبغض عدوك » !

أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وادعوا لمضطهديكم وأحسنوا إلى من يبغضكم لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السموات .

ويدلى بالسبب ، أو « الحيثيات » لهذه الوصية الفذة :

– .. لأن الله يطلع شمسه على الأشرار والأخيار على السواء ، وينزل غيثه على الأبرار والفجار ! فان أحببتم من يحبكم فقط ، فأى فضل لكم ؟ ...

ونقرأ أيضا فى إنجيل لوقا ( ٦ : ٢٧ ٪ ٣٦ ) :

– أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم وباركوا لاعنيكم ،

وادعوا للمفترين الكذب عليكم ... فان إحببتم من يحبكم فأى فضل لكم ؟ الخطاة أنفسهم يحبون من يحبهم ! وإن أحسنتم إلى من يحسن اليكم ، فأى فضل لكم ؟ الخطاة أيضا يفعلون ذلك ... ولكن احبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا « أبناء العلى » حقا . لأنه يجود على الجاحدين والأشرار . كونوا رحماء لأن أباكم رحيم ! .

الله رب الجميع بلا استثناء . أب الجميع وكافلهم بلا استثناء . فالجميع إذن إخوتك بلا استثناء : العدو منهم والصديق .

— ... وليس من الله من لا يحب أخاه !

هكذا يقول يوحنا فى رسالته الأولى ( ٣ : ١٠ ) .

بل ويقول هو نفسه فى تلك الرسالة ايضا بعد سطور (٣ : ١٤) :

— ونحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة ( الروحية ) لأننا نحب إخوتنا . ومن لا يحب فهو باق رهن الموت !

نحب الله ونحب إخوتنا أجل !

ولكن كيف ؟

— محبتنا لا تتحقق بالكلام أو اللسان . بل بالعمل والحق !

— ومن كانت له خيرات الدنيا ورأى بأخيه حاجة فأغلق أحشاءه دون أخيه ، فكيف تقيم محبة الله فيه ؟

— إن الله لم يره أحد . فاذا أحب بعضنا بعضا أقام الله فينا ، وتمت محبته فينا .

— وإذا قال أحد « إنى أحب الله » وهو لا يحب أخاه ( فى الله ) كان كاذبا . لأن الذى لا يحب أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحب الله وهو لايراه . فمن أحب الله أحب جميع إخوته ( فى الله ) .

فالمطلوب بشريعة المحبة الكاملة أن تجود بنفسك كلها . وتمنحها للجميع . لأن الجميع — وإن بدوا فى الظاهر غرباء أو أعداء — هم فى الحقيقة ليسوا أقرباءك فقط ، بل هم إخوتك فى الله .

ان الناموس التوراتى يقيم الحدود بينك وبين سواك . يقوم بما يمكن أن نسميه بالمصطلح الحديث عملية « فك اشتباك » أو « فصل القوات المتعادية » . وكأنه سور تتحصن به أنانيتك بازاء الآخرين. أى بازاء أولئك الذين تطلب منك المحبة ألا تحتجز دونهم شيئا ، بل تمنحهم نفسك كلها ، وما تملك .

وإلى هذا التفريق بين عدل أو موضوعية الناموس التوراتى ، وبين « الإيثار » أو المحبة المسيحية ، يشير بولس فى رسالته الأولى إلى معاونه تيموثاوس ، الذى يدعوه « ابنى الذى ولدته بالإيمان » !

— إن الناموس لم يوضع للبار ، بل للآثمين والعصاة والفجار والخطاة ومستبيحى الحرمات ومدنسيها . لقاتلى آبائهم وأمهاتهم ؛

لسافكى الدماء والزناة . لمضاجعى الذكور والنخاسين . للكذابين والحانثين . ولكل من يخالف التعليم السليم ...

أما أبناء الله فيحبون ، ولذا يعطون بلاحدود .

والهالكون معتدون . لذا وجد الناموس لتكبيلهم . إنه يحدد لهم الطريق ... لأنهم عميان القلوب لا يرون من تلقاء أنفسهم أين ينبغى أن يسلكوا .

المحبة تهذيب داخلى فطرى .

والناموس كمامة على فم وحش !

المحبة رحمة ورفق وحنان وعطاء .

والناموس قيد يكبل يدى فاتك معتد أثيم . أو أسلاك شائكة تحول بينه وبين ما تنزع إليه نفسه من الجور والعدوان .

***

الباب الضيق !

هذه المحبة الكاملة العجيبة . هل هى مما تسلس له القياد طبيعة البشر ؟ .

إنها تقتضى أن تتحول من إثبات ذاتك والتمكين لها ، إلى الجور على ذاتك ، حتى كأنك موكل بإفنائها ، تبذل منها بغير حدود ، وبلا تفرقة . والأصل فى غريزة الحياة حفظ الذات وتأكيدها والتمكين لها . فهذه هى قطرة جميع الكائنات الحية .

فهذه المحبة أذن على نقيض الغريزة الحيوية .

وإنها لكذلك !

فالمسيح بصريح النص يقول :

— ما أضيق الباب وما أوعر الطريق المفضى إلى الحياة الأبدية .

أى إلى الحياة الروحية ، حيث الروح قبس من روح الله . ذلك أن المحبة الكاملة هى صفة الله وحياته سبحانه . والتشبه به ، عن شغف وحنين وانتباه تام ، إنما هو — كما قلنا آنفا — سلوك « استقطابى » ... يضاد الحياة العضوية ويتنكر لها كى يتجه بمجموع الهمة إلى القطب المناقض لها .

فأى عجب فى أن يوصف هذا بأنه عسر لا يسر فيه . وأن باب الحياة الروحية ضيق ، لأنه لا يتسع إلا لمرور الروح الشفافة متجردة من كل شوائب النزعات الحسية الجسدية الغليظة ؟ .

وأى عجب أن يوصف الطريق إلى هذه الحياة بالوعورة المفرطة ، لأنها وعورة انتّزاع النفس من متعلقاتها الحيوية الطبيعية ؟

ويذهب علماء النفس إلى أن الحب البشرى تلازمه دائما كراهية كامنة ، كأنها تكون مع الحب وجهى عملة واحدة .

ولكن المحبة بالمعنى الذى تطلبه المسيحية وتتقاضاه من المؤمنين بها من نوع مختلف عن ذلك المألوف فى الحب البشرى .

— أحبوا أعداءكم !

وكيف نراهم أعداءنا ونحبهم ؟

هذا مستحيل طبعا . والحل الوحيد ألا نراهم ولا نحسبهم أعداء لنا . بل إخوة . وليكن شعورهم نحونا أنهم اعداؤنا . هذا شأنهم . أما نحن فعلينا — إن أردنا تلك الحياة الروحية الربانية — ألا يكون شعورنا بهم صورة من شعورهم الردئ بنا . وبذلك نحبهم ولا نبغضهم مهما أبغضونا ! ....

أهذا ممكن ؟

إن الطبيعة البشرية مغروس فى فطرتها دفع الخطر الذى يتهددها. فالتنبه لأى عداء يستثير الدفاع ، أى العداء . طبقا لقانون رد الفعل.

وهذا بالضبط ما ترفضه المسيحية !

فما هو معنى سلوكية رد الفعل ؟ معناها أن الطرف الآخر يملك

زمامك فى جميع الأحوال ، ويتصرف فيك . لأنك تشكل تصرفاتك كلها على أساس ما يصنعه .

والنتيجة الحتمية لسلوكية رد الفعل ، أن يصنع الطرف الآخر الشر أو يرتكب الخطأ فى حقك ، فترد على الشر بالشر ، وعلى الخطأ بخطأ آخر ، فاذا هناك شران لا واحد ، وخطآن لا واحد .

وهكذا يولد الشر الشر ، ويتكاثر بلا حدود .

أما إذا غفرنا للمسيء إلينا ، كما يغفر الله لنا ذنوبنا ، عندئذ يصاب الشر بالعقم ولا يتوالد . ويعجز العائب عن جرك إلى مستوى العيب فى مقابله . ومهما تمرغ فى أوحال العيب والإساءة ، أكرمت نفسك عن التمرغ مثله فى هذه الأوحال .

وهكذا يصنع كل واحد ما يليق به هو ، لا ما يليق بالآخر ... ويملك كل واحد زمام نفسه ويحافظ على مستواه .

●

ولكن يبقى السؤال معلقاً : أعسر هذه الدعوة أم يسر ؟ ..

المسيح يقول أنها عسر !

وهو فى هذا ينظر إلى الطبيعة البشرية بغرائزها الحيوية الجبارة : من حب الذات ، والعمل على صيانتها وحمايتها ، والاستماتة فى دفع المكاره والعداوات عنها ، وأيضاً من الاستماتة فى التمكين لها بالقوة

والنفوذ والجاه والمال . وكذلك فى غريزة الجنس المركبة فى أعماق كل كائن حى لمقاومة فناء النوع والعمل على استمراره .

وأمام كل هذه النوازع ، لابد أن تكون دعوة الخلوص للحياة الروحية والانتصار على الذات الحيوية على طول الخط دعوة عسيرة التحقيق أشد العسر . فما أشبهها بالدعوة إلى التغلب على الجاذبية الأرضية .

وليس الكل يستطيعون هذا بل « الذين أعطوا موهبة من الله فحسب » أى الذين « ولدوا من فوق » ولادة روحية جديدة .

وهى إشارة بالطبع إلى تفاوت الاستعـداد للروحانية ، وعلى هؤلاء الذين لم يصلوا إلى القداسة أن يعانوا عذابات انتزاع نفوسهم الحيوانية ، وهى عذابات تعادل الاحتضار الأليم ، بما تنطوى عليه من مقاومة الحرص الفطرى على الحياة الدنيا .

وهذا هو العسر العسير ، أو الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمارة بالسوء .

وخليق بنا فى هذا المقام أن نتذكر حقيقة علمية — أشرنا إليها فى فصل من الباب الأول — صارت من المعلومات الشائعة فى عصرنا . ألا وهى تفاوت الناس فى تركيب ونشاط غـددهم الصماء ، أى التى تفرز هرمونات تسرى فى دمائهم ، وليست لهم فى ذلك حيلة .

فبعض هذه الهرمونات يزيد من الميل للعدوان ، أو الميل القهرى أو شبه القهرى إلى ممارسة الجنس . أو إلى الشذوذ . وإلى

هذا الفريق من البشر تعزى الأنماط المطبوعة على الإجرام ، والتى لاتجدى معها ردع أو وعظ أو محاولة تألف وتهذيب .

والطب النفسى العلاجى فى العالم المتقدم يعالج هؤلاء إما بالجراحة أو بالعقاقير ، للتحكم فى غددهم الصماء الخارقة للنمط السوى ، ورد إفرازاتها إلى الحدود السليمة ، فاذا بهم يبرأون من شذوذهم القهرى الذى كان يتملكهم ويهيمن على سلوكهم هيمنة تحول بينهم وبين السلوك الذى يقره العرف والقانون ، والأخلاق والدين بطبيعة الحال ... لأن حالتهم المرضية تمنعهم عن تجاوز ذواتهم ذلك التجاوز الذى لابد منه للوصول إلى عتبة المستوى الموضوعى ، الذى لاقيام بدونه للأخلاق فى حدها الأدنى ... وهو الخضوع لمبدأ كلى أو مكيال واحد للذات وللغير على حد سواء .

وتفاوت إفراز الغدد الصماء دليل علمى حاسم على تفاوت استعداد الناس للقدرة على تجاوز ذواتهم . وناهيك بعد هذا بالانتصار على الذات والعمل على ما يضادها ويكاد يلاشيها !

فمن الناس من تسلس نفسه القياد للمبادئ بسهولة ، ومنهم من تشبه نفسه ونوازعها الجواد الحرون أو الجموح . فليس التغلب على النفس وجهادها فى الحالين سيان .

ولكن تبقى بعد هذا مراتب الكمال الخلقى فى نهاية المطاف رهنا بالاستماتة فى جهاد النفس على قدر الطاقة ...

نقول على قدر الطاقة ... ولعلم النفس هنا كلمة !

وتدور هذه الكلمة حول « الكبح » . وحول « الكبت » .

فلابد من التفريق بين المعتيين :

أنت « تكبح » غريزتك الفطرية ، كما يكبح الفارس دابته القوية الشكيمة . ويظل يقظا لعملية الكبح لايغفل وعيه عنها بحال من الأحوال ، وإلا قلبته دابته وأوقعته عن ظهرها .

أما الكبت فمسألة أخرى . إنه نبذ الرغبة لشدة التأثم منها ، بحيث تتوارى فى اللاشعور ، ويطويها الرقيب فى ظلمات هذه البئر العميقة ولا يسمح ببروزها ، أو بروز كل ما يتصل بها أو يذكر المرء بها إلى سطح الشعور أو الوعى . فتظل كجوف البركان الذى يمكن أن يضطرم ، فيحدث الزلازل ، أى الأمراض النفسية .

فالكبح لايؤدى لمرض نفسى ، أما الكبت فيتسبب فى أعراض كثيرة ، كى تصل إلى المرض النفسى الصريح .

فجهاد النفس قائم على اليقظة لهذه النوازع الذاتية المكبوحة ، وتحويلها — عن قصد — بطريق التسامى إلى أنواع من النشاط المنزه عن الإثم ، ولكنه يستخدم الطاقة الطبيعية لتلك النوازع التى تم تحويلها إليه ، كما يتم تحويل مجرى الماء لتتولد عنه طاقة الكهرباء مثلا ....

وهكذا يجب على المتسامى برغباته ، أن يظل فى حالة تنبه لتلك الرغبات الفطرية التى لاتموت مهما كبحت أو كبتت ، حتى لاتأخذه على غرة ، فى أى لحظة من اللحظات .

وبهذا يكون الجهاد الأكبر ، جهادا مستمرا ، أو « شوطا بلا انتهاء » .

وهذا هو العسر بعينه !

وعلى هذا المجاهد ، المتجه إلى الانتصار على الذات ، تمكينا لحياته الروحية القائمة على المحبة والعطاء ، أن يدرك أن ممارسة المحبة معناها الانفتاح على الناس والتعامل معهم بمقتضاها .

وهنا سيجد شراكا كثيرة من المغريات ، التى تداعب نزعاته التى يصدها ويكافحها .. فما أكثر ما تورط الشفقة والرحمة فى أنواع من العشق الذاتى ...

أى أن عليه أن يخوض النار ، من غير أن يحترق بها . وأن يحذر من الغرق ، وهو يظن أنه وضع قدميه على بر الأمان .

فما أكثر شراك العالم

لهذا ينجو كثيرون بأنفسهم من العالم وشراكه ، ليتفرغوا لخلاص أنفسهم .

ولكن العالم حقل الله . وهو بحاجة إلى الحراثين والحصادين .

وفيه يكون جهاد من تتقد نفسه بالمحبة ، فلا يكفيه أن يخلص نفسه وينجو بها ، بل يكون أكبر همه خلاص إخوته . أبناء هذه الدنيا ... فى معتركها جهاد المحبين الحقيقيين ...

فهؤلاء فرسان الله ! ... الذين ينزلون عن جميع حقوقهم ، ويتحملون راضين كل صنوف الواجبات ... بدافع المحبة لله فى أشخاص خلقه .

***

طريق الشوك ...

ما أضيق الباب وما أوعر الطريق !

ووعورة الطريق ، هى التى تجعل سلوكه « جهاداً متواصلا » .

ومتى تغلب المجاهد على وعورة الطريق ، ترك فى مراقيها ، وعلى أديمها علائقه الذاتية ... ونفذت روحه الشفافة من الباب الضيق .

وعن « أشواك الطريق » الوعر.. طريق « قهر النفس » نسوق حديثنا .

وهى أشواك تنبتها النفس البشرية بتكوينها الحيوى . وكلها متصلة بتأكيد الذات وصيانتها وتضخيم سطوتها .

وأول ما يتبدى هذا منها فى شهوات الفم ، أو شهوة الطعام والشراب . والطعام والشراب ضرورة تلوى بدونها الكائنات الحية ، أبتداء من النبات . فلابد للكائن الحى – أيا كانت صورته – من التغذى كى ينمو ، وكى يستمر فى البقاء . ولكن النفس البشرية تتجاوز هذه الضرورة التى لاغنى عنها ، فتجعلها شهوة متعددة الأفانين ، وتفنن فى تنويع أشكالها ، حتى تنقلب لذة تطلب لذاتها . وبذلك تغدو غاية بعد أن كانت وسيلة .

ولذا كان جهاد هذا الهوى المبتدع من أهواء الذاتية أول واجب يخوض غمراته من يرجو قهر الذات الدنيوية . والصوم لترويض

هذه الشهوة للطعام سلاح طبيعي فى حومة هذا الجهاد . ولكن الصوم لابد أن يعقبه فطر ، وعندئذ يجد الصائم ضالته فى القليل من الزاد الطبيعي ، مما تنبته الأرض غالباً من خضر وبقول ، وله أن يصيب من اللحم بين الحين والحين ، إصابة غير هائم أو منهوم .

وأذكر فى هذا المقام ما كان من أمر رجل اشتهر بحياة الزهد والتقوى ، عاش حتى أوائل هذا القرن فى بعض أقاليم مصر . اشتهت نفسه أكل الحمام . فكلف تابعه أن يعد له زوجا من الحمام المحشو بالفريك أو الأرز . وكانت المرة الأولى التى يشتهى فيها شيئا كهذا ، فعجب التابع وبادر باعداد وجبة أتقن صنعها من هذا الصنف . وأتى به الرجل الزاهد ، فوضعه ناحية من خلوته ولم يقربه أياما متوالية ، حتى أنتن وفاحت رائحته المغثية . وعندئذ قربه منه ، وجعل يناجى نفسه قائلا :

— هذا ما اشتهيته يا نفسى ! فلماذا لاتملئين منه جوفك الآن ! هلمى كليه !

وظل يقرع نفسه على هذا النحو ... فكان هذا آخر عهده باشتهاء لذة المطعوم والمشروب .

●

وتأتى من بعد هذه الشهوة الأولية ، شهوة الجنس . وفى هذا يقول بولس : ( قورنثوس ٧ )

— يحمل بالرجل أن لا يمس امرأة — ولكن ، خوفا من الزنى ، فليكن لكل رجل امرأته . ولكل امرأة زوجها ... لا سلطة للمرأة على جسدها فانما هو لزوجها ، وكذلك الزوج لا سلطة له على جسده فانما هو لامرأته .

فالأصل هو العفة ، وأما من لم يستطع حياة العفة التامة ، فليجعل الزواج رخصته حتى لا يقع فى خطيئة الزنى . وهذا فعلا ما صرح به بولس بعد سطور قليلة من عبارته آنفة الذكر :

— أقول لكم هذا للاجازة لا الأمر ، فانى أود لو كان جميع الناس مثلى ! ( أى بغير زواج يعيشون فى عفة تامة ) .

— وأقول لغير المتزوجين والأرامل أنه يحسن بهم أن يظلوا مثلى . فاذا لم « يطيقوا » العفاف فليتزوجوا ، فالزواج خير من التحرق بالشهوة . . .

فلئن كان الصوم المتصل بلا فطر مستحيلا ، لأن الغذاء ضرورى لحياة الجسد ، فان الجنس ليس بهذه الحتمية ، وكل ما هنالك أنه قوة عاتية ، وحظ الناس من عتوها وسطوتها متفاوت ، وحظهم من الإرادة والقدرة على كبحها متفاوت كذلك . فمن لم يستطع الامتناع التام — وهو الأفضل لحياة الروح — فليجعل لهذه الطاقة الجارفة منفسا فى الزواج من امرأة واحدة ، حتى لا يتحرق بالشهوة ، فيشغله هذا التحرق عن حياة الروح ، من عبادة ، ومن محبة نزيهة

غير مغرضة لخلق الله كافة كما ينبغى . فالزواج إذن إنما هو علاج ، أو هو « أهون الشرين ! »

●

والشهوة الثالثة فى القوة والجبروت هى شهوة التمكين للذات بما يشبع زهوها وغرورها من كرامات المناصب والمظاهر والنفوذ. وهذه أيضا تحتاج إلى سلاح لقهرها . فمن شغله الزهو انحصر فى ذاتيته وانصرف عن ممارسة المحبة التى هى عطاء ومنح ، وتخصيص الهمة كلها لإسداء الخير للجميع بلا تفرقة .

وبقهر الزهو والعجب تقوم فضيلة التواضع ، بكل ما يميزها من سماحة ، ولين جانب ، ودماثة .

وفى هذا المجال — مجال شهوة الزهو والتعاظم والتشامخ والتكاثر بالجاه والنفوذ — تتجلى ضراوة الصراع بين الناس ، ذلك الصراع الذى يناقض المحبة على طول الخط . فالتعاظم أو حب السيطرة تضخيم للأنانية الذاتية وإذلال للآخرين . فى حين أن المحبة إعزاز للآخرين وتكريم لهم وسعى فى خيرهم .

ولعل معظم ما فى الدنيا من شرور مرده إلى حب السيطرة الذى يركب الأفراد والدول على السواء ، فاذا بالإنسان ذئب لأخيه الإنسان .

وواضح أنها شهوة ليست لها أسانيد من الضرورة ، أو شبه الضرورة ، شأن الغذاء والجنس .

فلا غرابة فى أن يكون هذا المجال هو ميدان الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمارة بالسوء ، لأن حب السيطرة هو الذى يثبت أركان الذاتيه المضادة لحياة المحبة الروحية ، فهو يجعل من الناس فرائس لهذه الشهوة التى لا تشبع ، فى حين تجعلهم المحبة الصحيحة موضوع الصيانة والحدب والرحمة .

قيمتك عنـدما يتملكك حب السيطرة فيما تحوز ، وما تستولى عليه ، وما تأخذه . أما قيمتك عندما يتملكك روح المحبة ففيما تعطى لا فيما تأخذ .

●

وليس حب السيطرة قاصرا على طلب الجاه الاجتماعى فحسب . وإنما هو هوى فى النفس متصل غالبا بغريزة المقاتلة . هوى يجد له متنفسا فى كل مجالات الحياة الخاصة والعامة . وكثيرا ما يتجلى فى داخل العلاقة الزوجية نفسها : حيث يحاول أحد الزوجين — أو كلاهما أحيانا — أن تكون له السيطرة النفسية والفعلية على الآخر . ولا يعف عن استخدام أيما سلاح يتيسر له : سلاح الجمال ، أو سلاح المال ، أو سلاح الوضع القانونى . فتغدو الحياة . بينهما صراعا على السلطة ، غايته أن تكون لأحدهما الكلمة العليا بالإطلاق ، لا لمصلحة مشتركة بل إشباعا للغرور الذاتى والزهو .

فأيما انسان يملك سلطة يمكنه استخدامها لمصلحته الخاصة ، واشباعا لزهوه ، عرضة للافتتان بسلطانه ، وبذلك تتضخم الذاتيه ،

ويسد كل طريق يفضى إلى ضدها ، وهو حياة المحبة التى تقوم على قهر الذات ونوازعها الذاتية .

بل قد تنفذ الأنانية الذاتيه بالزهو والغرور من منافذ يظن صاحبها أنه سدها بعفته فى أمور الطعام والجنس ، وزهده فيهما . وذلك بأن يركبه العجب بنفسه لاقتداره على هاتين الشهوتين ، فيظن أنه صار بذلك أسمى معدنا من بقية الناس المستسلمين لضعفهم ، فينطوى — من حيث لا يدرى — على ازدرائهم والتعالى عليهم . والتعالى نقيض المحبة والرحمة ! ....

إنه غرور التقوى المظهرية . فلا تقوى حقيقية إلا مع التواضع ، وإساءه الظن على الدوام بالنفس الأمارة بالسوء ، واليقظة لها ، حتى لا تعوقه عن منبع كل خلق كريم فى المسيحية ، وهو المحبة والرحمة .

المحبة التى تتنافى وتتناقض مع حب الذات . بل الإهانة تأبى المحبة الكاملة أن يردها من أهين ، وحين يهضم حقه لا يثأر ، بل يتسامح . ومن ضربه على خده الأيسر ، أدار له خده الأيمن . فذاته لا تعنيه . وليست الشحناء من خلقه ، لأن الشحناء ليست من مكارم الأخلاق ....

الوثن الأكبر !

ولعل العقبة الكبرى على طريق الحياة الروحية ، هى ذلك الوثن الذى ظل على مدى الأجيال وثنا أكبر تهافت عليه النفوس البشرية ، تهافت الفراش على النار !

وثن هو ، يقع المتعبد له فى الشرك بالله ، من حيث إن « الله محبة » ، لأن عبادة هذا الوثن تدفع المرء الى نوع من افتراس الناس ، وهم المفروض فيهم أن يكونوا أحباءه الذين يعيش لخيرهم لا لخيره الخاص .

هذا الوثن هو حب المال !

ولذا يقول المسيح فى إنجيل لوقا ( ١٦ : ١٣ و ١٤ )

ـ لا تستطيعون ان تعملوا لله وللمال !

ويقول بولس فى رسالته الأولى إلى تيموتاوس ( ٦ : ١٠ )

ـ حب المال أصل جميع الشرور ، الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وأصابوا أنفسهم بآفات كثيرة .

وفى موعظة الجبل يقول المسيح ( متى ٦ : ١٩ / ٢١ )

ـ لا تكنزوا لأنفسكم كنوزا فى الأرض ، حيث يرعى السوس والعث ، وينقب اللصوص فيسرقون ، بل اكتنزوا لأنفسكم كنوزا

فى السماء ، حيث لا يرعى السوس والعث ، ولا ينقب اللصوص ليسرقوا .... فحيث يكون كنزك يكون قلبك !

وفى إنجيل متى ( ١٩ : ١٦ ٪ ٢٤ ) نقرأ هذا الكلام الصريح :

« وإذا برجل يدنو من يسوع المسيح فيقول له :

— يا معلم ! ماذا أعمل من الخير لأنال الحياة الأبدية ؟

فقال له المسيح :

— لماذا تسألنى عن الخير ؟ إنما الخير واحد . الزم الوصايا .

فقال له الرجل :

— اى وصايا ؟

فقال يسوع :

— لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك . أحبب قريبك حبك لنفسك .

فقال له الشاب :

— هذا كله حفظت . فماذا يعوزنى ؟

فقال له يسوع :

— إذا إردت ان تكون كاملا فاذهب وبع ما تملكه وتصدق به على الفقراء . فيكون لك كنز فى السماء . وتعال فاتبعنى !

فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينا لأنه كان ذا مال كثير .

فقال المسيح لتلاميذه :

— الحق أقول لكم : يعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السماء . وأقول لكم : أن يدخل الجمل فى سم الخياط ( ثقب الإبرة ) أيسر من أن يدخل الغنى ملكوت السماء !

فدهش التلاميذ لهذا الكلام دهشا شديداً .. »

●

فهل معنى هذا أن المال رجس فى حد ذاته ؟

لم يقل بولس أن المال أصل جميع الشرور . بل قال إن « حب» المال أصل جميع الشرور .

أما المال فليس خيرا فى ذاته ولا شرا . لأنه مجرد وسيلة للتعامل. فان استخدمت هذه الوسيلة للتعامل بمحبة ، أى لخدمة الناس وإسداء الخير والمعروف ، فهى خير ، وإن استخدمته للاضرار بالناس والاثراء على حساب احتياجهم واستغلال اضطرارهم وظروفهم ، فهى شر .

فحب المال ينزع من القلب محبة الناس ، ويحولهم إلى « مجال » للاستغلال المادى لضائقاتهم ، كى يبتزهم ويثرى من دمائهم وعرقهم .

فالمنهى عنه هنا هو الاستغلال توصلا إلى الإثراء ، فذلك فعل تمليه الذاتية الأنانية المعتدية ، وهى نقيض المحبة المانحة الرحيمة .

من يحب يرحم ، ويواسى فى الضيق والمحنة . أما المستغل فينتهز فرصة الضيق والمحنة ليبيع السلعة بأضعاف أضعاف ثمنها . وهكذا يتناهش الناس بسبب حب المال .

فحب المال أبرز مظاهر النشاط الذاتى المسعور . أما من يملك المال ليبذله فى الخير ، فهو محب للخير مهلك للمال .

فان أحببت المال وتعلقت به — سواء كنزته حيث يأكله السوس أو أنفقته فى ملذاتك الجسدية والمظهرية ، فذلك شر ، لأنه يصرف همك كله إلى تضخيم أنانيتك ، وبالتالى يبعدك عن الإيثار والمحبة ، التى هى من الله ولله .

حب المال يؤكد عبوديتك للجسد والأنانية ، وعلى حد تعبير بولس فى رسالته إلى أهل روما ( ٨ : ٧ ) .

— لأن اهتمام الجسد هو عداوة الله ! .. فان الذين يسلكون سبيل الجسد ينزعون إلى ما هو للجسد . والذين يسلكون سبيل الروح ينزعون إلى ما هو للروح ... ونزوع الجسد تمرد على الله ، والذين يسلكون سبيل الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله !

●

ولكن الزهد الكامل فى المال ، شأنه شأن الزهد الكامل فى شهوة الجنس ، وشهوة الأكل والشرب ، ليس موهبة ميسرة لجميع الطبائع البشرية على حد سواء .

فكما يتزوج من لا يطيق التبتل والعفة الكاملة ، كذلك يمارس الكسب من العمل وغيره من لا يطيقون النسك والتخلى عن المال جملة . ولكنهم يمارسون أمور المال لا عن تعلق به ومحبة له ، بل ليستخدموه ، فى سبل الخير ، وفى « خدمة » المحبة .

هؤلاء يتعاملون بالمال ، وربما أيضا بالممتلكات ، ولكنهم لا يهيمون بها حبا . بل يعلمون أن المال مال الله ، وأنهم وكلاؤه عليه . يوجهونه ويصرفونه فى كل ما يرضيه سبحانه من وجوه الخير .

أما من يكون « المال والثراء همهم » فهؤلاء مثلهم مثل البذرة الجيدة التى سقطت وسط الشوك ، فى مثل الزارع المشهور الذى ضربه المسيح فى إنجيل متى ( ١٣ : ٢٢ ) .

ـــ وأما الذى زرع فى الشوك فهو الذى يسمع كلام البر ويكون له من « هم » الحياة الدنيا ومن « فتنة الغنى » ما يخنق الكلام فلا يعطى ثمرا .

أما محبو الله ، فهم بالتالى محبو عباده ، فلا يمكن أن تكون

بهم وممتلكاتهم فتنة لهم . وزينة الحياة الدنيا ليست همهم ، بل همهم المحبة والرحمة . فالمحبة هى الكنز الذى لا ينضب .

إن كل كنوز الدنيا تنقص بمقدار ما تبذله منها للآخرين ، أما المحبة فتزيد كلما أفضت منها وتتأصل وتزكو ...

ذاك المحب إن كان ذا مال لم تكن أمواله له — كثرت أو قلت — بل لإخوته . وبذلك يكون هو وما يملك لإخوته ... أى لله !

***

وما القول فيما لاتستقيم حياة الناس بدونه ؟ ما القول فى العمل ؟ وهل يفرغ الناس له أم للعبادة ؟ .

العمل أيضا يمكن أن يكون خدمة للناس . وإيثارا لهم . ورفقا بهم . وحدبا عليهم . وعندئذ يكون ضربا من العبادة . أليس الله غنيا عن العباد ؟ وأليس العباد « أبناء الله » بالمعنى الذى تعنيه الرعاية والعناية والخلق ؟ فالبر بهم ، والعمل لخيرهم ، إنما هو محبة لله فى خلقه . فهو تقوى . وهو عبادة .

وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الناس يعملون لجمع الثروة ، أو لكسب الجاه ، أو الارتقاء فى المناصب ذات النفوذ والسلطان .

حتى أن من مفهوم العمل عند الكثيرين أنه مطية المضطر لكسب معاشه . بل أن من الناس من ينفى حاجته إلى العمل . وقد أدركت فى صباى وصدر شبابى من ينفون عن أنفسهم — فى أنفة شديدة !— أن لهم مهنة أو حرفة من أى نوع . وإنما هم « أعيان » أى من « ذوى الأملاك » ، يأكلون من غلة التراث الذى خلفه لهم آباؤهم مخلدين للراحة والتنعم .

وفى الصين القديمة كانت علامة الرقى أن يطيل المرء أظافره شبرا أو أكثر أو أقل ، علامة على أنه لم يستخدم منذ ولادته يديه

فى عمل شيء على الإطلاق ! فهو الطاعم الكاسى بيد غيره ، إمعانا فى نفى شبهة العمل ، أو شبهة الحاجة إليه .

وقد أدركت فى بكرة العمر بالصعيد الأعلى ، عند بعض العشائر ، من كانوا يمنعون أولادهم — لابناتهم فحسب ! — من تعلم القراءة والكتابة والحساب . فما حاجة أبنائهم — أبناء الأكرمين ! الى شيء من هذا ، وهم يستخدمون الكتاب والحاسبين بأجر معلوم وفى فضل الله سعة ! كأنما فضل الله على المرء منهم أنه « جمع مالا وعدده » . أما العلم فليس فى نظرهم فضلا ، لأن المال أداة الجاه والسوة ، أما العلم فكفى صاحبه وضاعة وقماءة — فى نظرهم — أنه يبذل علمه لمن ينقد الأجرا . فهو بعلمه خادم ، والجاهل — بماله — سيد مخدوم !

وهذا المفهوم للعمل مفهوم دنيء ، يدل على أن « الاستغلال » عند هؤلاء أساس كل قيمة .

أما فى شريعة المحبة والإيثار ، فمقياس مكارم الأخلاق هو الإقبال على الخدمة وإسداء الخير ...

وبهذا المقياس يكون أوجز معيار لاتساق مفهوم العمل مع مكارم الأخلاق ، أن يكون عمل كل عامل « رسالة » يؤديها لخير الناس ، وليس مهنة لاجتلاب الكسب والإثراء لنفسه فحسب .

فبهذا يكون العمل ثمرة شجرة الحياة الطيبة .

ألا ترى إلى الشجرة ، تأخذ غذاءها من الأرض والجو :
فبدون هذا القسط الكافى من الغذاء تذوى وتموت . ولكنها لا تأخذ
منه مايفوق حاجتها. وهى لا تأخذه إلا لكى تكون أقدر على العطاء .
العطاء بظلها الظليل ، وزهرها اليانع ، وثمرها الشهى ؟ ..

هكذا إذن ينبغى أن يكون هم الإنسان الفاضل المجبول على المحبة
والايثار : ينال من عمله ما يقيمه ويشد أزره ويمكنه من مواصلة
العمل ، الذى جعله « رسالة » حياته ، التى يجد فى إتقانها واسدائها
لخير الناس معنى وجوده وسر سعادته الروحية .

ولكم ملأنى الأسى وأنا أرى امهاتنا يلقن أولادهن منذ نعومة
أظفارهم :

ــ جدوا واجتهدوا كى تنفعوا أنفسكم ويكثر مالكم بما تتقنونه
من علم وعمل ...

فيستقر فى نفوسهم الغضة أن غاية الغايات إنما هى « نفع الذات »
لا نفع الناس . فتتفقت فيهم منذ البداية روح الارتباط بالمجموع
البشرى ... قوميا كان أو إنسانيا .

ولذا رأيت من اقتضت ظروف حياتهم أن يكونوا معلمين
يتناسون ان المعلمين ورثة الأنبياء . وأنهم صناع العقول ، وبناة
الأجيال . ولا يذكرون إلا أنها « حرفة » لاجتلاب رزق ضئيل
هزيل ، فيركبهم الشعور بالضآلة والإحباط . ذلك انهم لم يلتفتوا

الى أن عملهم الجليل – بل كل عمل يتصل بالناس ! – إنما هو رسالة جليلة ، وانه بهذا المعنى جهاد حسن فى سبيل القربى الى الله ... فأقرب القربى عند من يحبون الله ، هى « خدمة المحبة » الخالصة المخلصة لكافة « أبناء الله » . لكافة إخوتهم فى الله . للبشر كافة !

وإن قيمة هذا العمل أنه هذا « القربان » وهذه القربى إلى الله . وليست قيمته فيما يفيء من أجر ...

وهكذا رأيت من كانوا خليقين بالاعتداد برسالة عملهم الجليل رسالة العلم والتعليم – يزدرون عملهم ويضيقون به ، ويحسدون أرباب اللهو ممن تنهال عليهم أموال السكارى وأهل المجون ، فيقتنون الضياع والدور والقصور والمركبات الفارهة ! .

وعلى النقيض من هؤلاء من يعيشون المحبة ، فتتوجهم مكارم الأخلاق بتاج لا نظير له . لأنه تاج الجدارة بصفة أمست نادرة بين أهل الأرض : صفة الإنسانية الحقة .

فانت إنسان على خلق عظيم ، بمقدار إيثارك على نفسك ، وتجردك من الأثرة .

ولمثل هذا فليعمل العاملون ! ...

## أهم مراجع مكارم الأخلاق فى المسيحية

١ – العهد القديم

٢ – الانجيل

٣ – كتابنا « على مائدة المسيح »

( نشر مكتبة غريب بالفجالة )

## ـ ٣ ـ

## وجاء الاسلام ٠٠٠

تلك الجاهلية ..

لابد عند الحديث عن مجيء الاسلام ، فى بيئة لم يبعث فيها من قبل رسول « من أنفسهم » ، أن ننظر فى حال العرب أيام جاهليتهم ، لندرك مقدار التحول أو النقلة من حال الى حال .

●

إنها حياة القبيلة ، التى تقوم فى معظم الأحوال والمواضع على الرعى . وتقوم فى قريش خاصة على تجارة القوافل ، ورحلة الشتاء والصيف ، وما يترتب عليها ويقترن بها من اختلاط بأمم الحضارة ، من روم ، وفرس . وبديانات أهل هذه الحضارة أو تلك ، وتناقل الأخبار والمشاهدات . وشيوع الميل إلى الترف بين الاثرياء ، وما يعنيه الترف فى مثل تلك البيئة التى يكثر فيها الاتجار بالرقيق والخمر من شيوع التنعم والتلذذ وحياة المجون والاندفاع فى غمار الشهوات .

فاذا تذكرنا أن أولئك العرب — فى جملتهم — لم تكن لهم عقيدة سماوية ، أدركنا أن الوازع ينقصهم . وإذا تذكرنا أنه لم تكن لهم حكومة مركزية قوية تفرض قانونا كقوانين الروم أو الفرس ، أدركنا أن الرادع ايضا كان ينقصهم .

فما كان سائدا بينهم إنما هو العرف القبلى . وهذا العرف مختلف باختلاف حال كل قبيلة ، من قوة ومنعة أو من ضعف وهوان

شأن ، فالقوة هى مصدر الحقوق فى مثل تلك البيئة . الحق فيها للاقوى والويل فيها للضعيف المغلوب .

ومن عجب أن الدكتور طه حسين كان يتوقع الشيء الكثير من « الحياة الدينية » لأولئك العرب الجاهليين ، وهم أهل وثنية . أى أن لكل قبيلة آلهتها وصنمها فليس لدياناتهم رباط من الشريعة التى تقوم على تحديد الحرام والحلال ، وتوعد الناس بحساب عسير .

ومعنى الحلال والحرام هنا وضع الضوابط لشهوات النفس ونوازعها الذاتية الحيوية ، على أساس قاعدة موضوعية يسلم بها المتدين .

فى غياب العقائد من هذا النوع ، نجد الحبل على الغارب لنوازع الناس الذاتية . فكل من استطاع شيئاً فعله ، لايخشى عقابا إلهيا غيبيا . بل كل ما يخشاه ثأر الخصم أو حلفائه ، إن قدروا على الثأر . أما من أمن شيئاً من ذلك فلا وازع له ولا رادع ، ولا راد لغلوائه .

فمن البدهى إذن أن يكون تدين أهل تلك الوثنية مجموعة أعراف قبلية . وأن يكون اعتزازهم بدينهم الوثنى لونا من ألوان الاعتزاز بالشرف القبلى وتقاليد القبيلة وتراثها ، وفرعا من العصبية لها يدفعهم إلى الحمية والدفاع عن الحوزة . لأن الدين هنا رمز « الحمى » الذى يرون فى العدوان عليه إهدارا لكرامتهم وذهابا بشوكتهم .

دين لا شرع فيه . ولا بعث ولا معاد ولا حساب . فلا يمكن لذلك أن يكون منبعاً للأخلاق أو قواعد السلوك الكلية .

وهذا « طه حسين » فى كتابه الأدب الجاهلى يقول عنهم :

— كلا ! لم يكن القرشيون جهالا ولا أغبيـــاء . ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية . وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ؛ وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

وليست القضية هى جهلهم وغباؤهم وغلظتهم وجفوة حياتهم وخشونتها . بل القضية هنا قضية مناط أخلاقهم . فلا يمكن أن يكون دينهم مصدراً لمستوى خلقى . بل « العرف » أو « التقاليد » هى مصدر ما كانوا عليه من أخلاق .

ونجد « طه حسين » بعد هذه العبارة ، يستدرك قائلا :

— وهنا يجب أن نحتاط . فلم يكن العرب كلهم كذلك . ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك . وإنما كانوا كغيرهم من الأمم منقسمين إلى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم . وطبقة العامة الذين لا يكادون يكون لهم من هذا كله حظ .. .. والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم وإمعانهم فى الكفر والنفاق ، وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين . أليس هو الذى يقول « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » ؟ أليس قد

شرع للنبى أن يتألف قلوب الأعراب بالمال ؟ بلى ! فالقرآن إذن يمثل الأمة العربية ( يومئذ ) على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبى يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ فى استنارة وامتياز ، والذين كانوا موضوع النزاع بين النبى وخصومه ، والذين كان يتألفهم النبى بالمال أحياناً .

ولسنا نختلف مع الدكتور طه حسين فى شىء من هذا ، إلا أننا نخالفه فيما ذهب إليه من المبالغة فى شأن حياتهم الدينية مستدلا على ذلك بما كان بينهم وبين النبى من مجادلة عنيفة ، ثم ما كان منهم بعد ذلك من تشديد النكير عليه وتعذيب المستضعفين من أتباعه ، مما اضطرهم إلى الهجرة ، ثم ما اضطر إليه النبى من الهجرة من بعد ، وما اتصل بينهم وبينه من حروب .

فالذى نراه فى أمر دينهم وذودهم عنه ، أنه ضرب من الاعتزاز بالقومية ، ومن الحمية ، فهذا هو « ما وجدنا عليه آباءنا من قبل » وليس معنى هذا تقديسهم لذلك الدين الوثنى من حيث هو دين . فما كان ينظم لهم من حياتهم إلا ما يتفق وأهواءهم . ولايحملهم على شىء مما يضاد هذه الأهواء أو يكبحها .

أجل كانت لديهم قواعد للسلوك ، ولكنها قواعد العرف والتقاليد الموروثة . وما أكثر ما كان فى حياة الأقوياء من الجور .

وما أكثر ما كان فى سلوكهم من التحلل . فالبغاء كان شيئاً مألوفا يقره العرف . بل إن العرف كان ينظم طرق نسبة أبناء البغايا إلى هذا الرجل أو ذاك ممن يترددون على خيامهن التى ترفرف عليها الرايات الحمراء ، علامة على مهنتهن التى تأبى عليهن رد كل من يذهب إليهن ...,

أجل كانت لأولئك العرب سجايا ، يتفاخرون بها . فى شعر الفخر إذن نجد صورة صادقة للقيم التى يتمدحون بها ، فهى عندهم فى المقام الأسنى ، الذى يعادل « مكارم الأخلاق » بالمعنى العرفى .

وأول ما نجده الزهو بالجبروت والتعالى ، علامة على أنهم أبناء الأكرمين . فهذا — مثلا — عمرو بن كلثوم يقول فى معلقته :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينا !

ذلك أنه لايجسر أحد أن يرد الماء قبلهم ، إقرارا لهم بالسيادة والتقدم .

فالتجبر أو الجور خلق متعمد .. يلتمس له زهير بن أبى سلمى الأسباب والمبررات ، حيث يقول :

.... ومن لايظلم الناس يُظْلَم ...

والغزو للنهب والسلب آية الفتوة والمنعة ، وإفناء المال فى

في مجالس الشراب آية العزة والرفاهية . والتهالك على إتيان النساء مفخرة ...

أنصغى مثلا إلى فتى مثل طرفة بنى العبد ؟ نجده إذن يقول فى معلقته :

ألا أيهذا اللائمى أشهد الوغى
وأن أحضر اللذات : هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لاتسطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى !
فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى :
فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن ، والدجن معجب ،
ببهكنة تحت الطراف المعمد ...

ولعل القارئ بحاجة إلى توضيح هذه الأبيات . فهى صورة موجزة للقيم الكبرى أو الغايات الرئيسية فى حياة الفتى من الطبقة المترفة المرفهة من عرب الجاهلية ...

إنه يقول لمن يلومه على ولوعه بالاشتراك فى القتال كلما سنحت له فرصة لذلك . فان لم يكن خائضاً غمار الحرب ، فهو مدمن مجالس اللهو والخمر وما فيها من صنوف اللذات . يقول لهذا الذى يلومه : أتملك أن تخلدنى فى هذه الحياة الدنيا ؟

وهو سؤال معروف الجواب سلفا . أنه لا خلود فى الدنيا . وعندئذ يرد على هذا اللائم بقوله : ما دمت لا تستطيع أن تدفع عنى الموت الذى لا أعرف متى يجيء ، وهو لاشك آت ، فدعنى أغتنم فرصة الحياة قبل انقضائها لأنعم بخير ما فيها .

وما خير ما فيها ؟

إنه يجمله فى ثلاثة أمور ، يقول أنه لولاها لما أسف على انقضاء أجله . فهى كل ما يأسى على الحياة بسببه :

وأول هذه الأمور الخمر الجيدة التى ترغى وتزبد متى صببت عليها الماء . وهذه علامة على أنها معتقة .

وثانى هذه الأمور حماية الضيف إذا استنجد به ، فيكر راكبا جواده الذى يشبه الذئب فى خفته وسرعته وضراوة اقتحامه .

وثالثها قطع الوقت فى اليوم الشاتى بمضاجعة أنثى كبيرة الأرداف ، تحت خيمته الفاخرة المصنوعة من الجلد ، والمرفوعة على أعمدة ، كى يرى صفحة السماء المكفهرة وهو بنجوة ورفاهة عيش ...

فالقيم الكبرى التي يغليها ويغلي الحياة بسببها إنما هي الخمر ، والنساء ، ونجدة المستجير اللائذ بجاه . وفيما عدا هذا فانما هي الحياة الدنيا التي لاتفكير وراءها في بعث أو حساب ، أو خلود روح .... أو خالق له شريعة ومنهاج ...

ولعل قائلا يقول :

إن إغاثة الملهوف وحماية المستجير ، وخوض الحرب في سبيل ذلك مكرمة وسجية جديرة بالإكبار . وكذلك كرم الضيافة أو « القرى » كما كانوا يسمونه .

أليس الكرم وحماية الحمى وحرمة الجوار من أكبر ما يمدحون به على ألسنة الشعراء .

ضربوا بمدرجة الطريق بيوتهم
لا يسألون عن السواد القادم ! ..

فالصحراء مكان لا عمران فيه مستقر ، والطعام فيه كثيراً ما يشح في سنوات الجدب . والماء نادر الوجود إلا في آبار قليلة تحيط بها المراعي . وفي مثل هذه البيئة يكون القرى مسألة كثيرا ما تحسم الفرق بين الحياة والهلاك جوعا وعطشا .

وللأهمية القصوى لكرم الضيافة في هذه الظروف ، يكون ذلك الكرم أمجد ما يوصف به العربي وينبه به ذكره . ولذا نجد أقبح ما يوصف به العربي الشح ورفض إيواء الغريب وإطعامه :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو
قالوا لأمهمو : بولى على النار !

كما قال الحطيئة . فتذهب هذه النقيصة سبة الدهر ...

فالكرم هنا ضرورة حياة . وما من شك أنه من مكارم الأخلاق . فكثيراً ما يكون الكرم فى تلك البادية علامة على إيثار ليس بعده إيثار . وإن من أجواد العرب من كانت السنة الجدباء قد أتت على ماله ، من غنم وإبل ، حتى لم يتبق له إلا شاة واحدة ، يقيم لبنها أوده وأود امرأته . فينزل به الضيف ، فينحر شاته الوحيدة ويبيت على النار يشوى له لحمها ويطعمه إياه ، ولا يكاد يصيب منه شيئاً .

إيثار ما بعده إيثار . لايرجو عليه ثوابا ، وهو الذى لا يؤمن ببعث ولا آخرة ولا حساب . ولكنها علامة الكرامة التى توارثها العرف .

ومن هذا القبيل أيضاً حماية الحمى ، وحفظ الجوار ، والوفاء بالوعد . فهذه كلها سجايا نبيلة ، ومردها إلى الأنفة والكبرياء والاعتداد بالنفس.... وهى صورة عرف يتوارثه الأكابر وذوو المكانة جيلا بعد جيل .

وهذا دليل على أن تلك الحياة الجاهلية التى كانت قائمة على طلب اللذة ، وعلى الكبرياء ، والاعتقاد أن لابعث ولا حساب

ولا خالق ... لم تكن تخلو من قواعد للسلوك . وهى قواعد التقاليد والعرف الموروث .

وهو دليل أيضاً على أن تلك الحياة الحسية لم تكن تقاليد السادة فيها تخلو من سجايا كريمة تقوم على الأنفة وتدل على الإيثار بلا مراء ولكن الجور أيضاً كان هو الغالب عليهم .

ويعى التاريخ ، قبل بعثة النبى العربى ، ما يسمى « حلف الفضول » .

يقول الدكتور هيكل فى كتابه القيم « حياة محمد » :

« شعرت قريش بعد حرب الفجار أن ما أصابها وما أصاب مكة جميعاً بعد موت هاشم وموت عبدالمطلب من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر ، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع . اذ ذاك دعا الزبير بن عبدالمطلب ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتيم ، فى دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاما ، فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة . وقد حضر محمد هذا الحلف الذى سماه العرب حلف الفضول وكان يقول :

ــ وما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم . ولو دعيت به لأجبت » .

وواضح أن هذا الحلف لم يشترك فيه كل بطون قريش . وواضح أيضاً أنه دليل على استفاضة الظلم والجور والعدوان من الأقوياء على الضعفاء . فكأن هذا الحلف واحة نجدة ونخوة وعدل وسط صحراء مترامية من الضراوة الرعناء .

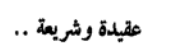
•

عدوان وجور ، مصدرهما الافتتان بالقوة الذاتية . ومكارم أخلاق مصدرها — حين توجد — الاعتداد بالكرامة الشخصية أو القبلية .

أما المبادئ الكلية ، التى يدين بها الكافة ، فلم يكن لها مكان فى ذلك المجتمع القبلى الذى لايعلو فيه شىء فوق سلطان العرف . ولا إيمان فيه وراء الحس وحياة الحس ....

وهكذا كان الحال حتى ظهر الإسلام .

***


عقيدة وشريعة ..

من المسلم به عند كل من يدين بالإسلام ، أن نبي الاسلام إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، طبقاً للحديث المشهور . ولكن مكارم الأخلاق — كما رأينا — « بناء فوقى » لا يقوم من غير أساس من « محاسن الأخلاق » ، التى هى مستوى العدل ، أو الكيل بمكيال واحد موضوعى لا ذاتية فيه .

ولقد كانت الجاهلية أعرافا تختلف باختلاف القبائل . وما يكال به بين أبناء القبيلة الواحدة لا يكال به لمن هو غريب عنها . وما يكال به للحر لايكال به للعبد . وما يكال به للعربى غير الذى يكال به لغير العربى من الأعاجم أو الأحابيش أو غيرهم .. وما يكال به للقوى غير الذى يكال به للضعيف .

فكان أول تمهيد للأرض ، كى يقوم أساس كل خلق قويم ، هو نقض أخلاق الأعراف والتقاليد والعنجهية ، وإلغاء سلطانها ، ليكون هناك سلطان واحد لإقامة الحدود والعلاقات بين الناس كافة : أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، بقانون واحد يكون الجميع أمامه سواسية كأسنان المشط .

وكان هذا السلطان الأعلى هو « شريعة الله » .

فلم يكن لسواد العرب فى الجاهلية عهد بشريعة علوية تقيم حدود التعامل بالعدل ، وتمنع الجور والعدوان ، وترسى — لأول

مرة فى تاريخ العرب — تلك المساواة بين المؤمنين كافة . فتلغى الطبقات وفوارقها أمام هذا الشرع الكلى الموضوعى . فلا يكون فضل لقرشى على أعجمى إلا بالتقوى .

وكانت هذه بداية التحول الهائل من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام .

وسند هذه المساواة التى تهدم ما توارثه العرف ، ليس عرفاً جديدا أو فرضا عمليا أو قسريا . بل هو سند مستمد من مصدر أعلى من المصادر البشرية كافة . هو مصدر « الإيمان بالله الواحد » .

فهذا الايمان يبث فى النفوس والعقول نظرة جديدة تماما ، تتجاوز النظرة « الحسية » الواقعية ، وتلغى ما كان سائدا من أن الحياة الدنيا هى كل شىء ، وإن الموت ختامها الأخير .

فالاسلام دعا هؤلاء الجاهليين إلى معرفة صلة جديدة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس مابينه وبين خالقه . وبموجب عقيدة الخلق الإلهى يرسخ الايمان بأنهم كلهم لآدم . لأب واحد . فلا شرعية إذن للتفاخر بالانساب والآباء . مادام الأصل فى النهاية واحدا . بل ردهم أيضاً إلى ما وراء هذا . فعرفوا أنهم جميعاً لآدم وآدم من تراب . تمكينا فى الأذهان لعقيدة الخلق . وتأكيدا لسلطان الربوبية المطلق ، وما يترتب عليه من الإقرار بالعبودية للخالق ووجوب طاعته فى كل شىء .

وعلى أساس من هذه الطاعة ، يقوم أساس الإيمان بالبعث ، فالذى خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً ، قادر أن يجمع عظامهم بعد أن كانت رميما ، ويبث فيها الحياة ، ويستأدى من كل واحد منهم حسابا عما فعله ، من التزام بطاعة الله أو مروق عنها .

— أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ بل قادرين على أن نسوى بنانه ! بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ « أين المفر » ؟ كلا لاوزر ! إلى ربك يومئذ المستقر ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره .

( سورة القيامة : ٣-١٥)

بل فى هذه السورة بعينها يقول القرآن الكريم بعد بضع آيات على سبيل تأكيد قدرة الله على البعث ، تأسيسا على تفرده بمعجزة الخلق ابتداء :

— أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟

( سورة القيامة : ٣٦-٤٠ )

بطل إذن قولهم واعتقادهم : إنما هى الحياة الدنيا ، ثم لا شىء

بعد هذا أبدا . بطل إذن اعتقادهم أنه ليس لحياتهم معنى باق وراء واقعها الحسي ، وما يتيحه من لذة ولعب ولهو وتجبر .

وهذا الإيمان بالخالق والبعث والحساب هو حجر الزاوية فى بناء الدين الجديد . ولذا فلا عجب أن يكون مجال النضال والمجاهدة والمجادلة ، بين الجاهليين والعقيدة الجديدة ، بما تدخله من تغيير كلي على نظرتهم إلى الحياة وإلى أنفسهم .

وحاجهم القرآن فى ذلك بالاستناد إلى آيات الله فى الخلق وقدرته عليه سبحانه :

— ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ! ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون !

(المؤمنون : ١٢-١٦)

وذكرهم بعد ذلك ببضع آيات بما كان من أمثالهم مع نبى الله نوح ، وأنهم صنعوا مثل صنيعهم وكذبوا بآيات الله مثل تكذيبهم هذا ، وكانوا فى غفلة كغفلتهم واغترارهم بالحياة الحسية ، وأنها كل شيء ، ولا شيء وراءها ، فأهلكهم الله ، ثم ..

ـ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ ! وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون !

( المؤمنون : ٣١-٣٤ )

ثم تتلو ذلك حجة الكافرين بالله على توالى العصور :

ـ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون ! إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ! إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين !

( المؤمنون : ٣٥ ٪ ٣٨ )

فهذا قولهم الذى يصرون عليه كلما دعوا إلى الإيمان بالله الخالق المحيى المميت ، الذى إليه الحشر وبين يديه الحساب :

ـ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيـــا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ! ...

( الجاثية : ٢٤ )

فهذه القضية إذن هى مفرق الطرق بين الكفر والإيمان ، أو بين حياة الجاهلية وحياة الإسلام .

وعلى أساس التسليم بوحدانية الخالق المحاسب على الطاعة والمعصية تقوم شريعة الحياة الإسلامية التى تضع الحدود بين الحرام والحلال ، فالحلال بها بين والحرام بين . وهذه هى القاعدة الموضوعية الكلية ، أو المكيال الواحد الذى يعنو له الكافة ، وهم أمامه سواسية بلا استثناء .

وعلى هذه الأرض الصلبة يقوم أساس الأخلاق الإسلامية :

***

من الجور إلى العدل

كانت الجاهلية احتكاما إلى القوة والجبروت . ولذا شاع فيها العدوان . . . .

فبدأ الإسلام بحماية النفس والعرض والمال . وذلك ما يقابل وصايا الناموس : لا تقتل ، لا تزن . لا تسرق ...

ورتب القصاص العادل على كل جناية من هذه الجنايات . وهنا مرة أخرى نجد شريعة « عين بعين وسن بسن » ، التي تبين حدود العلاقة بين الناس عندما يقع عدوان على أحد منهم . فهذا ما يعنينا في مبحث الاخلاق ، أما محرمات الطعام والشراب وما الى ذلك ، فهي من أمور الدين الخارجة عن نطاق العلاقة بين الناس بعضهم وبعض ، لأنها أمور تخص علاقة المرء بربه .

وتشير سورة المائدة إلى ما جاء بالتوراة في هذا الشأن :

— وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن والجروح قصاص .
( المائدة : ٤٥ )

ويردف ذلك بقوله :

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . ثم في الآية ٤٨ يقول :

— فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق.
ثم فى الآية ٥٠ :

— أفحكم الجاهلية يبغون ؟

وما كان حكم الجاهلية إلا البغى والجور والعدوان . لم تكن العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن . بل كان جزاء من اعتدى قليلا أن يرد عليه عدوانا بغير حدود ،تشفيا وإمعانا فى الانتقام ، إن كان الموتور قادرا . إما إن كان الموتور ضعيفا ، فان دمه يذهب هدرا لأن الحكم ليس لله ، بقاعدة كلية موضوعية ، بل الحكم للقوة والبغى والجبروت .

فشريعة النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن هى العتبة التى يلج الناس منها ملكوت العدل بعد ملكوت الجور .

وهو عدل يسوى بين الجميع ، لأنه ليس مستمدا من عرف العشيرة المحدودة ، ولا من قانون القوة الغاشمة . بل من حكم الله الذى يستوى فى ميزانه جميع خلقه . .

ويعى التاريخ يوم أسلم أحد ملوك الغساسنة ، وهو جبلة بن الأيهم ... فى خلافة عمر بن الخطاب . وفيما هو يطوف بالبيت داس أعرابى على ازاره فحله ، فضربه جبلة فأدمى أنفه . وذهب

الأعرابى يشكوه إلى عمر . فدعا عمر جبلة ، وسأله فأقر إقرارا من لا يرى أنه اجترح شيئا غير طبيعى . فقال له عمر .

— يقتص منك الأعرابى ، ضربة بضربة !

فذهل جبلة وقال له :

— كيف هذا ؟ أنا ملك وهو سوقة !

فكان رد عمر :

— ولكن الإسلام سوى بينكما !

ويعى التاريخ كذلك ما كان من أمر ابن فاتح مصر عمرو بن العاص ، حين تسابق فرسه وفرس ابن أحد أقباطها ، فسبق فرس القبطى فرس ابن عمرو ، فضربه ابن عمرو وهو يقول قولة جاهلية :

— خذها وأنا ابن الأكرمين !

فذهب والد ذلك الشاب مع ابنه إلى المدينة ليشكو ذلك الظلم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فدعا أمير المؤمنين بعمرو وولده ثم أعطى درته ( عصاه الغليظة ) لابن القبطى ، كى يضرب بها ابن فاتح مصر كما ضربه . فاقتص المضروب من الضارب .

ولم يكتف عمر بن الخطاب بهذا ، فقال للمضروب :

— أجلها كذلك على صلعة عمرو . فما استطال الابن عليك إلا بسلطان أبيه !

ولكن الولد وأباه قالا :

— لا نفعل . فقد اقتصصنا من الضارب !

وهذه الواقعة شاهد عملى على أن حكم الشرع يسوى بين الناس فى القصاص . فلا ملك ولا سوقة ، ولا حاكم ولا محكوم ، ولا مسلم ولا ذمى . الكل أمام الشريعة الموضوعية الكلية سواسية كأسنان المشط !

— والحرمات قصاص ! فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله . واعلموا أن الله مع المتقين .
(البقرة : ١٩٤)

لحرمات قصاص . فمن اعتدى على حرمة أحد ، فليكن لاقتصاص منه بمثل ما اعتدى به . والمسئولية فى هذا شخصية . فلا يجوز أن يكون الاقتصاص كثأر الجاهلية ، يناله المعتدى عليه من أى فرد من أفراد عشيرة المعتدى أو قبيلته . كلا . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه هو شخصيا ...

وعلى خلاف ثأر الجاهلية أيضا ، لا يجوز أن يتجاوز رد العدوان للاقتصاص من المعتدى حدود مثل ما اعتدى به أولا ، كأنما العدوان نوع من الربا . فلا تزيد ..

ويفيد تتابع نص هذه الآية ، أن التزيد فى القصاص من المعتدى ، أى تجاوز رد العدوان بمثله ، وعلى شخص المعتدى دون سواه — نقيض التقوى . فالتقوى تلزم الناس إذن ألا يتجاوزوا فى رد العدوان شخص المعتدى وبمثل ما كان منه حين اعتدى .

بل وفى شريعة القتال ، أى الحرب ، لا يجوز إلا قتال من قاتلوكم ، أى الذين تصدوا لكم محاربين بادئين بالحرب ، على أن يكون هذا القتال فى سبيل الله .

— وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ! إن الله لايحب المعتدين .

( البقرة ١٨٠ )

أما الذين لم يقاتلوكم ولم يبادروا بالعدوان :

— عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ! والله قدير . والله غفور رحيم .

( الممتحنة ٧ )

وأكثر من هذا :

— لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين .

( الممتحنة ٨ )

وهل وراء حب الله شيء ؟ ذلك غاية الغايات فى التحريض على هذا البر ، وهذا القسط ... لأنه عدل أبعد ما يكون عن العدوان . والعدوان أبغض ما يندد به القرآن وينهى عنه . وكل عدوان أباحه إنما هو فى حقيقته « قصاص » أو « رد عدوان » . أما تجاوز العدل فى رد العدوان فخروج عن التقوى . « إن الله لايحب المعتدين » .

فحب الله المقسطين العادلين فى جانب . وبغضه المعتدين فى الجانب الآخر . وليس وراء هذا توضيح للسنن القويم والمنهاج المستقيم .

وفى القرآن الكريم تحذير من الانسياق مع شعور العداء والكراهية انسياقا يورط فى العدوان على أولئك الأعداء — إلا أن تكون حرب .

ففى سورة المائدة ، الآية الثانية تقول :

— .. ولايجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .

— وتعاونوا على البر والتقوى . ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

فالآية تربط التورط فى هذا العدوان بدافع الشنئان أو التعاون

على العدوان ، بأنه خروج على تقوى الله . وتتوعد المعتدين فى هذه الحالة بأن الله شديد العقاب .

•

فالعدوان جور ، وهو نقيض العدل . وليس أقبح من الجور والظلم — وكانا من أخلاق الجاهلية — فعتبة الخلق القويم فى الإسلام ذلك التحول من بغى الجاهلية وظلمها وعدوانها إلى العدل الذى يرتبط بتقوى الله . أى شرعه الموضوعى الكلى الذى هو حق للكافة على الكافة بلا تفرقة . وليس العدل فى هذه الحالة تكرما يصدر عن اعتداد العادل المنصف المقسط بنفسه . إنما هى حدود الله الآن ، وليست تفضلا من أحد على أحد ، كما كان يحدث من ذوى الخلق الحميد فى الجاهلية ، اعتدادا بمكانتهم وفضلهم .

ولكن الإنصاف الموضوعى يقتضى منا ها هنا أن نلتفت إلى عنصر آخر ، قد يرتبط بهذا العدل ، الذى هو حق الله وقانونه الكلى .

وهذا العنصر هو « الانتصار على النفس » . أو قهر الذات والذاتية حين يكون الإذعان لعدل الله مضادا لنزعة بشرية قوية . فيكون قهر هذه النزعة العنيفة تقربا إلى الله ومحل ثواب ، ويكون فى الوقت نفسه مرتبة تعلو فوق الخلق القويم السوى ، وتلامس نطاق « مكارم الأخلاق » لما فى ذلك من « الإيثار » على نحو ما ..

— ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى . واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون .

( المائدة ٨ )

فالتغلب على النفور أو الكراهية — التى قد يكون لها مبررها الطبيعى — كى تعطى من تكره حقه المادى أو المعنوى ، مثل إيفائه ما يستحق من الشهادة له بسجية حسنة ، مسألة ليست سهلة على النفس البشرية ، ما لم تكن مطبوعة على تقديس الحق والعدل . وهما فى الاسلام — كما فى غيره من الشرائع السماوية — مطلوبان من المؤمن ، مهما كلفه ذلك من مجاهدة شعوره الذاتى .

ومما أذكره فى هذا المقام ، ما كان من لقاء بين عمر بن الخطاب والرجل الذى كان قد قتل أخا له ، قبل أن يدخل هذا القاتل فى الاسلام . فلما أسلم « جب الإسلام ما قبله » أى ألغاه . وصارت دماء الجاهلية — على حد تعبير النبى — موضوعة . أى لاقصاص فيها .

عندئذ قال عمر لقاتل أخيه — وله فى ذلك كل العذر :

— لن أحبك حتى تحب الأرض الدماء !

ومعروف أن التراب لايشرب الدم ، لأنه يتجلط على سطحه .
فأجابه ذلك الرجل :

— أمانعى ذلك حقا يكون لى .. ؟

فقال أمير المؤمنين على الفور :

ــ لا !

قالها سريعة قاطعة ، كأنه يبرأ إلى الله من ذلك . فقال الرجل :

ــ إذن لايأسى على الحب غير النساء !

وهو رد أحسب ذلك الرجل قاله إما عن غلاظة طبع وجفوة سجية ، وإما على سبيل المغايظة وإظهار عدم المبالاة .

فراد عمر ، أن الشنئان لايمنع العدل ، وأن يأخذ من يكرهه حقه كاملا . وتلك مجاهدة للذاتية لاشك فيها ، أقول أنها تكاد « تلامس » مستوى مكارم الأخلاق القائم على الإيثار .

أجل ها هنا إيثار . ولكنه ليس الإيثار بالنزول عن شيء من حق المؤثر على نفسه . كلا ! فالعدل حق الله وليس حق عمر أو غير عمر ، وهو حين يوفى عدوه حقه ، لايتنازل عن شيء مما لعمر بل يأتمر بأمر الله ، مع احتفاظه بمشاعره الخاصة ، التى هى من شأنه ومن حقه .

فلو كان من حق عمر أن يثأر من قاتل أخيه ، وآثره على نفسه ، فتنازل عن الاقتصاص منه وهو ولى الدم ، لكان ذلك إيثارا صحيحا ، وعملا يدل على مكارم الأخلاق بلا مراء ...

ولست أعنى ــ بالطبع ــ أن عمر ليس له رصيد ضخم فى

مواقف كثيرة من مكارم الأخلاق ، بل أعنى أن هذه الواقعة التى اتخذتها مثلا لمجاهدة الذات إذعانا للقاعدة الكلية الموضوعية ، قاعدة العدل ، التى هى أساس محاسن الأخلاق فى شريعة الإسلام ، إنما هى دليل على قمة من قمم مجاهدة الذاتية ، تقارب وتماس مكارم الأخلاق . ولكنها لاتنطوى على النزول طواعية أو تطوعا عن حق من حقوق عمر . بل إن عمر احتفظ بحقه فى الشنئان أو الكراهية كاملا ، وكل ما هناك أنه حرص على ألا يعوق هذا أداء حق عدوه الذى شرعه له الله كاملا .

وهذا التطوع بالنزول عن حق شخصى إيثارا للآخرين ، هو شرط مكارم الأخلاق بمعنى الكلمة .

•

والخصومة فى الأمور الشخصية ليست المدعاة الوحيدة للشنئان أو العداوة . بل كثيرا ما تكون الخصومة أو الخلاف حول المسائل العامة – ومنها المسائل المتعلقة بالعقيدة – مثار انفعالات لاتؤمن بوادرها .

ألسنا نرى الهندوس وهم يقدسون الحياة فى كل كائن حى ، حتى الحشرات ، ومن باب أولى البقرة ، براً بها ، ووفاء لما تبذله للناس من لبنها ..؟ ولكن الهنود المسلمين يذبحون البقر ويأكلون

لحمه . ولذا يحتدم الغضب والخصام ، وإذا بمن يقدسون حياة الحيوان ، يقتلون الآدميين اندفاعا مع لدد الخصومة .

وتحذيرا من مثل هذا الاندفاع الذى يجر إلى الشحناء مع المخالفين فى العقيدة ، نجد القرآن الكريم يقول :

ـ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن .

( العنكبوت ٤٦ )

والدعوة إلى الايمان بالعقيدة مطلوبة ، ولكن « لا إكراه فى الدين » . وهذا بدهى . فالإيمان لايكون قسرا ، بل لايكون إلا عن اقتناع وتسليم بالباطن قبل الظاهر .

ـ .. فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر !

( الكهف ٢٩ )

ـ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .

( المائدة ٤٨ )

ـ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً .

( يونس ٩٩ )

ـ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

( هود ١١٨ )

— إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا .

( المزمل ١٩ )

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

( النحل ١٢٥ )

والسيرة حافلة بسماحة النبي العربي مع أهل الكتاب ، ففى اليمن مثلا كان يعيش كثيرون من المسيحيين واليهود ، فكتب إلى عامله على اليمن .

— من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها .

وهو القائل فى حديثه الثابت بالسند الصحيح :

— من آذى ذميا فقد آذانى .

وفى رواية أخرى :

— من آذى ذميا فأنا خصمه . ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة !

وهو أيضاً الذى تروى السيرة عنه ، أنه كان يجلس مع صحابته عندما مرت به جنازة يهودى ، فوقف لمرورها .

وعجب بعض صحابته وقال :

— إنه يهودى يا رسول الله ...

فقال له :

— سبحان الله ! أليست نفساً ؟ !

وإذا رجعنا إلى العهد الذى كتبه لنصارى نجران وجدنا فيه :

— ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبى على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبعهم وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا وقهة من وقهيته ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . وليس عليهم ريبة ولادم جاهلية ، ولايحشرون ولا يعشرون ولايطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .... ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله أمره ، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة وكتب .

ومن سماحته أيضا أنهم اجتمعوا به فى المسجد ، فلما كان المساء وحان وقت صلاتهم ، نهضوا إليها فى المسجد واتجهوا إلى الشرق وتلوا صلاتهم . ولما حاول بعض الصحابة منعهم ، قال لهم النبى دعوهم وصلاتهم .

ويعلق صاحب « زاد المعاد » ، الإمام ابن قيم الجوزية ، على ذلك، بأنه يستفاد من هذا فقه :

ــ ففيها جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين . وفيها تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفى مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضا ولا يمكنوا من اعتياد ذلك . وفيها أن إقرار الكاهن الكتابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبى لا يدخله فى الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته . فاذا تمسك بدينه يعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه ...

( زاد المعاد الجزء الثالث ص ٤٢ )

ولو أنسقنا وراء شواهد سماحة الاسلام مع أهل الكتاب ، وما فى ذلك من نهى عن مجادلتهم الا بالتى هى أحسن ، وحفظ حقوق أهل الذمة فى دينهم وأنفسهم وأموالهم كاملة لأحتجنا فى ذلك إلى المجلدات الطوال . وفيما ذكرناه الكفاية لكل لبيب .

***

ومكارم الأخلاق ...

يحسن بنا أن نتنبه منذ الآن إلى أن السلوك البشرى فى الإسلام يتسم بالتوافقية ، لا بالاستقطابية . أى أنه يقوم على التوافق بين مطالب الجسد ومطالب الروح . بين الدنيا وبين الدين .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » و « لاتنس نصيبك من الدنيا » .

وبذلك تبدو « النقله » من حياة الجاهلية الحسية الخالصة ، إلى حياة الإسلام خالية من التناقض الذى يكون بين ضدين لا التقاء بينهما .

وها هنا أيضاً موضع للتنبه إلى أهمية تفاوت الناس للاستعداد الروحى ، أى الاستعداد لتجاوز الذاتية وقهرها ، ذلك التغلب الذى لا قيام بدونه لمكارم الأخلاق — وهى أخلاق الإيثار فى مقابل أخلاق الأثرة والأنانية .

فلكل نفس فى هذا المنحى طاقة محدودة ، و « كل ميسر لما خلق له .. » ، « ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها » و « الدين يسر لا عسر ، فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولاظهرا أبقى ! » .

وأخلاق الإيثار — أى النزول طواعية عن الحقوق رحمة بالغير ومحبة له وبراً به — هى قوام مكارم الأخلاق . أى الأخلاق القائمة

على الكرم والجود بما هو حق صريح للباذل والمتنازل ... وهى الأخلاق التى رأينا المسيحية تطالب بها مطالبة « فرض » و « تحتيم » وهى هى بعينها فى الإسلام ، إلا أنه يطلبها « تطوعا » ويحض عليها كل قادر على مشاقها . ويربط بها مراتب الفضل والمثوبةوالرضوان.

فحين تأخذ حقك بلا زيادة ، ولاتقبل منه انتقاصا ، فأنت عند حد العدل ، الذى هو مستوى الخلق القويم . وحين تؤدى الزكاة وما إليها من فروض الله ، فأنت مسلم قائم بما هو « مفروض» عليك لا فكاك لك منه ، ولايجوز لك التحايل أو التملص ، لأنه حق الله عندك ، يجب عليك أن تؤديه إليه .

أما حين تنزل عن شيء من حقك تطوعا وسماحة ، وبرا أو رحمة أو محبة ، فأنت على خلق كريم ، ولست على خلق قويم فحسب .

فهناك صدقة « التطوع » ، التى تدفعك إلى بذلها مشاعر الأخوة لأخيك المحتاج .

بل إن الرحمة بالحيوان الأعجم رقة قلب تجعل لك مكانا ومنزلة بين الأفاضل ممن هم على « خلق كريم » .

فمراتب الفضل رهن بما تدفعه إليك رقة قلبك من الإيثار على نفسك . لاتملقا ، ولا طلبا لمنفعة أو قضاء شهوة ، بل بدافع المحبة أو الرحمة المنزهة عن الأغراض الشخصية .

وكلما كان عملك قهرا لذاتيتك ، وإمعانا فى الإيثار ، كان ذلك أدل على مكانة أرفع بين مراتب الخلق الكريم ، لأنه أدل على « البر » ، الذى هو ثمرة الإيمان الحقيق .

— ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال ، على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ... ..

( البقرة ١٧٧ )

وهكذا يكون بذل المال — على حبه — إيثارا كريما تثمره شجرة « البر » التى أتت هذه الآية على وصفها . ومعروف أن البشر — أو معظمهم — « يحبون المال حبا جما » فبذله فى هذا السبيل رحمة وانتصار على الذاتية لاشك فيه .

وينطبق هذا على بذل كل ما يحبه الإنسان ويشتهيه لنفسه ، ولو آثر به نفسه لما كان ظالما ولا معتديا .. كأطايب الطعام مثلا :

— ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا .

إنما نطعمكم لوجه الله ، لانريد منكم جزاء ولا شكورا ...

( الانسان ٨و٩ )

عن رقة قلب ورحمة ، وقربى إلى الله ، لاطلبا لقضاء حاجة مثلما يهدى الكثيرون أطايب الثمار لذوى الحول والطول والسلطان ..

— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

( الحشر ٩ )

أليس الإيثار مع الخصاصة — أى الفاقة والضيق — ، وبرغمها هو غاية الإيثار ؟ أليس هذا من أكبر أبواب « الجهاد الأكبر » ، جهاد النفس ؟

وهذا كله من مكارم الأخلاق ، لأنه إيثار على الذات فى الماديات . ولكن هناك إيثارا آخر فى المعنويات ، وفى الحقوق ، وفيما يتصل بالمشاعر البشرية من غيظ وغضب للكرامة :

— وجزاء سيئة سيئة مثلها ! فمن عفا وأصلح فأجره على الله !

( الشورى ٤٠ )

أليس القصاص من حق من اعتدى عليه ، شريطة ألا يزيد على مثل ما اعتدى به عليه ؟ هذا حقه . ولكن مكارم الأخلاق فى ترك هذا الحق والنزول عنه طوعا ، لا رهبة ، فيكون أجره عند الله عظيما ... وهذا عين الحث على الصفح والمغفرة .

وهذا ما تشير إليه سورة البقرة ٢٣٧ :

— وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولاتنسوا الفضل بينكم

وهكذا يربط النص بين « الفضل » و « العفو » .

– إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء ، فان الله كان عفوا قديرا .

( النساء ١٤٩ )

– وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم .

( التغابن ١٤ )

وهذا كله حث على العفو والصفح والمغفرة ، تقربا إلى الله الذى من صفاته جل جلاله أنه غفور رحيم .

ولعله لبست هناك عبارات أجمع لمكارم الأخلاق ، من الآيتين ١٣٣ و ١٣٤ من سورة آل عمران :

– وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .. (١٣٣)

ومن هم هؤلاء المتقون ؟ هم :

– الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين ! (١٣٤)

فأولى درجات مكارم الأخلاق هذا البذل للمال وعرض الدنيا . ثم تأتى درجة من يساء اليهم فيغتاظون ، ولكنهم لا يردون الإساءة بل يكظمون غيظهم ، نازلين عن حقهم فى رد السيئة بسيئة مثلها .

وفوق هذه درجة من يعفو فلا يحمل فى نفسه غيظا ولا إحنة . وفوق الجميع من يقابل السيئة بالاحسان ، والله يحب المحسنين !

إنى لأحس لهذه الآية نظير إحساسى بقول المسيح فى موعظة الجبل :

— أحسنوا إلى من يسيئون إليكم . فان أحسنتم لمن يحسنون إليكم فقط ، فأى فضل لكم ؟

وفى هذا من الانتصار على الذاتية ، ومن الإيثار والسماحة التى تدل على « الكرم » الأصيل ما فيه .

ولست أجد مثلا للتسامح فى أمس ما يجرح كرامة الرجل الكريم من تسامح أبى بكر ورده إساءة من خاض فى سمعة ابنته عائشة بالإحسان إليه . على هول ما كان من ملابسات « حديث الإفك المشهور » !

وكان مسطح بن أثاثة ( ابن خالة أبى بكر ) ممن أفصحوا بالفاحشة . فلما أنزلت براءة عائشة ، قال أبو بكر — وله كل الحق وكل العذر :

— والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قاله لعائشة وأدخل علينا ( من الغم ) .

وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته وفقره . فلما نزلت الآية ٢٢ من سورة « النور » :

— ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ؟

قال أبو بكر :

— بلى والله ! إنى لأحب أن يغفر الله لى !

فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق .. . قال :

— والله لا أنزعها منه أبدا ...

أليس الحض على المغفرة هنا هو بعينه ما يذكره المسيحيون فى صلاتهم :

— رب اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا ؟

أليس هذا دليلا أكبر الدليل على أن مكارم الأخلاق والبر فى المسيحية والإسلام صنوان ، بل هما شىء واحد ؟

أكبر ظنى أنه شىء واحد . وأنه ثمرة الشجرة الطيبة التى تنبتها بذرة الإيمان بالله الغفور الرحيم المنعم المبدع التواب ... يستوى فى ذلك هذا الدين وذاك الدين .. فهاهنا نقطه التقاء بين المسيحية والاسلام

وسلام على الصادقين ....

مصر الجديدة — دكتور نظمى لوقا

٧ يناير سنة ١٩٨١

## أهم مراجع مكارم الأخلاق فى الاسلام


١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ صحيح البخارى .

٣ ــ سيرة ابن هشام

٤ ــ زاد المعاد .

٥ ــ كتابنا أبوبكر حوارى محمد ــ نشر مكتبة غريب

## كتب للدكتور نظمي لوقا

الله في نظر الناس وكما أراه ( فلسفة )
المغتصبة ( رقيق الأرض ) — رواية .
حبات الفول ( حياة مخبولة ) — رواية .
أشباح المقبرة ( شعر ) .
كنت وحدى ( شعر )
الله أساس المعرفة والأخلاق — ( فلسفة )
الفن والتفرد — بحث
عذراء كفر الشيخ — رواية
آكلة النيران — قصة
دفاع عن العقل ( فلسفة )
الحقيقة عند ديكرت واسبنوزا ( فلسفة )
المخمور — قصة
حتى الكلاب — قصة
الحق بين الشك واليقين .
محمد الرسالة والرسول .

محمد فى حياته الخاصة ــ نشر مكتبة غريب

أبو بكر حوارى محمد ــ نشر مكتبة غريب

عمرو بن العاص

على مائدة المسيح ــ نشر مكتبة غريب

فرويد يفسر أحلامك ( سلسلة علم النفس للجميع ــ الناشر مكتبة غريب )

الله والإنسان والقيمة ( المذهب الفلسفى للدكتور نظمى لوقا )

نحو مفهوم إنسانى للإنسان ( عرض جديد لمذهبه الفلسفى ــ مكتبة غريب )

الوصول إلى السعادة ــ عن برتراند راسل

العالم كما أراه ــ عن برتراند راسل

الزواج وأخلاقيات الجنس ــ عن راسل ــ الناشر مكتبة غريب .

العقل والمعايير ــ لاندريه لالند

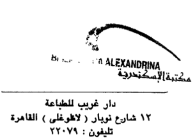
النمو السيكلوجى للطفل ــ لفالون

علم النفس التطبيقى ــ لبرنا نوس

انياب التنين ــ لابتون سنكلر .

## موضوعات الكتاب

رقم الايداع ٥٤٧٠
الترقيم الدولى ٨ ـ ٤١ ـ ٧٣١٤ ـ ٩٧٧




دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار ( لاظوغلى ) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

# هذا الكتاب

ليس هذا الموقف الفكرى المنصف الملتزم بالأمانة والموضوعية جديدا على الدكتور نظمى لوقا ، بل هو منهجه الذى تمسك به منذ ربع قرن ·

فبروح المفكر المنصف كتب ـ وهو المسيحى ـ عن التراث الاسلامى عدة كتب لها مكانتها ، لأنه فى نظره ذخر انسانى للبشرية جمعاء ، مهما تباينت دياناتها · كما كتب عن المسيحية بنفس هذا المنهج الموضوعى التحليلى الذى ينبغى الا تختلف موازينه باختلاف الموضوعات ·

وهذا الكتاب الجديد دراسة مشرقة التقاء المسيحية بالاسلام فى الديانتين ، قدم بين يديها بارساء المعايير العقلية التى ينبغى أن توزن بها هذه الأخلاق الرفيعة · وسيرى القارىء أنه أثبت بالنصوص والأدلة القاطعة أنهما سباق ·

كتاب يقنع العقل ، ويرضى الايمان ، ويدعم الاخاء الانسانى والوطنى والقومى على السواء ·




**الثمن ١٠٠ قرش**

**دار غـريب للطباعة**
١٢ شارع نوبار ( لاظوغلى ) القاهرة
ص · ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩